ادفع
بالتي هي أحسن

بسم الله الرحمن الرحيم

ادفع بالتي هي أحسن

الأستاذ الدكتور

محمد عمر الحاجي

دار المكتبي

الطبعة الأولى
2007 - 1427

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

من وحي التنزيل

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تعالىٰ :

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت : ٣٣-٣٦]

صدق الله العظيم

من دوحة الشّعر

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلفٌ جِدًّا
أراهم إلى نصري بطاء ، وإنْ همُ ... دعوني إلى نصر أتيتهمْ شَدًّا
وإنْ يأكلوا لحمي وفرْتُ لحومَهُمْ ... وإنْ يهدِمُوا مجدي بنيتُ لهمْ مجدا
وإنْ زجروا طيراً بنحسٍ تمرُّ بي ... زجرتُ لهمْ طيراً تمرُّ بهمْ سعدا
وإنْ ضيَّعوا غيبي حفظتُ غيوبهم ... وإنْ همْ هَوَوْا غيي هويتُ لهمْ رشدا
ولا أحمل الحقدَ الدفينَ عليهمُ ... فليس كريمُ القومِ مَنْ يحملُ الحقدا
لهم جلُّ مالي إن تتابعَ لي غنىً ... وإنْ قلَّ مالي لم أكلفهمْ رِفْدَا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد

أحمد الله تبارك وتعالىٰ ، وأصلي وأسلم على جميع أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبائه ، ومن دعا بدعوته بإحسانٍ إلى يوم الدين ، وأستفتح بالذي هو خير :

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وبعد :

فأحسن التصانيف وأصحُّها وأجمعها تبين أن القرآن المكي هو ما نزل قبل الهجرة ، بينما المدني هو ما نزل بعدها ، سواء نزل بمكة أو المدينة ، عام الفتح أو عام حجة الوداع .

مثالُ ذلك أن العلماء اعتبروا الآية التي نزلت في حجة الوداع ، اعتبروها مدنية على الرغم من أنها نزلت في مكة ، وهي قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

ومن خصائص الآيات المكية ؛ أن القرآن المكي جاء في فترة انتقالية ، من الجاهلية إلى الإسلام ، من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة الله الواحد الديَّان ، لذلك كان التركيز على ترسيخ العقيدة في نفوس المسلمين ، وذلك عن طريق أسلوب الوعظ تارةً ، أو من خلال أساليب التأكيد على الأخلاقيات الفاضلة ، أو من خلال الاعتبار بما حدث للأمم السابقة ، كقوم نوح وفرعون وما إلى هنالك .

كذلك ، فالآيات المكية حملت طابع الدعوة إلى الله تعالىٰ ، من خلال التركيز على المناقشة والحجاج ، مع أهل الكتاب ، ومع المشركين ، ومع الملحدين ، ومع المنكرين للنبوة ، ومع المنكرين للمعاد .

لكن العجب العجاب ، أن القرآن يرسم خطوطاً عريضةً ، ويركز على بعض القوانين التي غفل المسلمون عنها ، حتى الدعاة إلى الله ، ومن هنا كان الغرض من هذا الكتاب : الوقوف على قانون قرآني ، تكرر مرات أربعة ، وهو قوله تعالى : ﴿ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ .

ففي المرة الأولى : وفي سورة النحل ، والتي ترتيبها في النزول (٧٠) بينما ترتيبها في المصحف (١٦) ، طالب

القرآن الناس بالجدال ، لكن بالتي هي أحسن .

وفي المرة الثانية ، وفي سورة الإسراء ، والتي ترتيبها في النزول (٥٠) بينما ترتيبها في المصحف (١٧) ، ركز القرآن الحديث عن القول الأحسن .

وفي المرة الثالثة ، وفي سورة العنكبوت ، والتي ترتيبها في النزول (٨٥) بينما ترتيبها في المصحف (٢٩) ، أَكَّدَ البيان الإلٰهي على الجدال مع أهل الكتاب ، لكن بالتي هي أحسن .

وفي المرة الرابعة ، وفي سورة فصِّلت ، والتي ترتيبها في النزول (٦١) بينما ترتيبها في المصحف (٤١) ، جاء الحديث عن مسألة مهمةٍ وهي : مقابلة السيئة بالإحسان ، ودفع الإساءة بالحسنىٰ .

إذاً :

الجدال مع كل الناس ، خاصةً في أمور الدعوة إلى الله تعالى ، وطريقة الحديث مع الناس وفي كل الأمور ، والجدال مع أهل الكتاب حتى لو كانت القضية تتعلق بأدقِّ التفصيلات وأكثرها حساسية ، كالعقيدة ونحو ذلك . .

وردّ السيئة بالحسنىٰ . . . ، كل ذلك يجب أن يكون ضمن

هذا الخط العريض ، وهو ﴿ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ .

لذلك ، توقفنا مع بعض أسباب نزول هذه الآيات ، وتفسيراتها ، والأجواء المحيطة بها ، وبالتالي ما الهدف من ذلك ، وما الدروس المستفادة من ذكرها ، وما الحكمة من كونها ـ كلها ـ مكية ؟ إضافةً إلى بعض الأمور الجزئية التي ذُكرت في حينه ، ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧] .

نسأل الله أن يجعل هذا العمل المتواضع مما يمكث في العقول والقلوب والدهور ، فهو منه وإليه ، والحمد لله رب العالمين .

القانون القرآني

﴿ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

١ـ الجدال ﴿ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ : خاص بالدعوة إلى الله .

٢ـ القول ﴿ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

٣ـ الجدال مع أهل الكتاب ، لكن ﴿ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

٤ـ دفع السيئة ﴿ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

الفصل الأول

الجدال بالتي هي أحسن

(خاص بقضايا الدعوة إلى الله تعالىٰ)

قيل لهرِم بن حبَّان حين احتضر : أوصِ .

فقال : إن الوصية من المال ، ولا مال لي ، وأوصيكم بخواتيم سورة النحل .

وهذه وصية في غاية الروعة حقاً ، ذلك لأنها إحدى أسس الدعوة إلى الله تعالىٰ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما انصرف المشركون عن قتلىٰ أحد ، انصرف رسول الله ﷺ فرأىٰ منظراً ساءه ، ورأىٰ حمزة رضي الله عنه : قد شُقَّ بطنه ، واصطُلم أنفه ، وجُدعت أذناه ، فقال : « لولا أن تحزن النساء أو تكون سنَّةً بعدي ، لتركتُهُ حتى يبعثه الله تعالىٰ من بطون السباع والطير ،

لأقتلنَّ مكانه سبعين رجلاً منهم » ثم دعا ببردة فغطىٰ بها وجهه فخرجت رجلاه ، فجعل على رجليه شيئاً من الإذْخر ، ثم قدَّمه وكبَّر عليه عشراً ، ثم جعل يُجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه حتى صلَّىٰ عليه سبعين صلاةً ، وكان القتلىٰ سبعين ، فلما دُفنوا وفُرغ منهم ، نزلت هذه الآية : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ . . . حتى قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ فصبر ولم يمثِّل بأحد[1] .

فما هو الجدال ؟

في اللغة والاصطلاح ، يعني الجدل : مقابلة الحجة بالحجة ، وبالتالي فالمجادلة : المناظرة والمخاصمة ، ومن هنا جاءت تسمية إحدى سور القرآن بالمجادلة ، حيث جادلت خولة بنت ثعلبة رسول الله ﷺ في قضية الظهار[2] .

وهناك ألفاظ ذات صلة بالمجادلة ، مثل المناظرة : وهي ترداد الكلام بين شخصين ، يقصد كل واحد منهما تصحيح

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي : ٢٩٠ـ٢٩١ .

(٢) للتوسع يراجع : تفسير الطبري : ٦/٢٨ ، تفسير القرطبي : ١٧/ ٢٧٠ ، الدر المنثور للسيوطي ١١٧٩/٦٠ ، مستدرك الحاكم : ٤٨١/٢ .

قوله وإبطال قول صاحبه ، مع رغبة كل منهما في ظهور الحق .

أما المناقشة ، فهي مراجعة الكلام بقصد الوصول إلى الحق غالباً .

ومن الجدل ما هو ممدوح شرعاً ، حسب مقتضيات الظروف والأوضاع ، بل قد يصل إلى حدِّ فرض العين خاصة إذا كان المطلوب الدفاع عن الحق .

ومن الجدل ما هو مذموم ، خاصةً إذا كان الهدف منه باطلاً ، أو يؤدي إلى باطل ، أو يقلب الحق باطلاً والباطل حقاً .

من هنا نفهم أن كل النصوص الشرعية الآمرة بالجدل محمولة على الجدل الممدوح شرعاً ، أما النصوص الشرعية التي ذمَّت الجدل فمحمولة على الجدل المذموم شرعاً ، وذلك كما قوله تعالى : ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغُرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر : ٤-٥] .

فلا تعارض في مسألة الجدل ، إنما ما نهىٰ الله عنه فهو

مذموم ، وأما ما أمر به فهو الجدال بالحق لإقامة الحجة على أهل الباطل ، قال الله تعالىٰ في معرض الحديث عن الجدل المحمود من حيث تقديم البراهين والحجج القرآنية : ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان : ٥٢] .

أي أن يكون جهادك باللسان لتبيان الحق لا بالسبِّ والشتم ، إنما بإقامة الحجج ، وإقناع الآخرين بما في القرآن والسنة من معلومات ونحو ذلك .

ولا يظنن أحدٌ أن الجهاد بالكلمة شيءٌ سهل ويسير ، إنما قد يكون من الخطورة بمكان ، بل قد يؤدي إلى الاستشهاد في سبيل الله تعالىٰ .

إذاً :

ذكرت آية النحل نماذج من أساليب ووسائل الدعوة إلى الله تعالىٰ ، وأهمها :

الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن ، وعلى كل داعٍ أن يستعمل أي أسلوب من هذه الأساليب ، وذلك حسبَ المقام والحال .

وأما الحكمة فهي التعليم المتقن الدقيق الواضح الدلالة ،

وبالتالي فهي وضع كل شيء في موضعه ، ويكون معرفة ذلك عن طريق التجربة أو العقل .

وأما الموعظة فأصلها من الوعظ ، وهو النصح والتذكير بالعواقب ، والهدف منها تليين القلب وجعله مستعدًّاً لتلقي كل ما له علاقة بالله ورسوله .

قال العلامة الألوسي رحمه الله تعالى : الموعظة الحسنة هي مجموعة العبر النافعة ، والخطابات المقنعة ، والإشارات المخوفة على وجهٍ لا يخفى على المدعو من أن الداعي يناصحهم بها ، ويقصد بما ينفعهم[1] .

وكل أسلوبٍ يحمل في طيَّاته الترغيب والترهيب فهو أسلوب حسن ، بحيث إذا عرف الإنسان ماذا أعدَّ الله للمتقين الطائعين ، تراه ينطلق نحو الفضائل والأعمال الخيرة .

وكذلك إذا عرف ماذا أعدّ الله للإنسان العاصي من سوء منقلب ، ونار حرُّها شديد ، وماؤها صديد ، وحليّها ومقامعها حديد ، تراه ينطلق مبتعداً عن كل الرذائل وما إلى هنالك .

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : ١٤/ ٢٥٤ .

فالترغيب والترهيب يعطي دوراً كبيراً في قضية الناس ، بحيث يعيش الواحدُ منهم حالةَ الرجاء والترغيب .

ومن هنا نفهم السر الكامن وراء تكرار القرآن الكريم والتأكيد على هذا الأسلوب ، فعندما يأتي الوعظ في جانب الترغيب في مسألة الدخول إلى الجنة مثلاً ، ترى أن الإنسان انفتح على ذلك أكثر ، وارتاحت نفسه ، وأدرك عقله لحقائق الأشياء ، وتحمَّس لكل عملٍ يوصل إلى الجنة ، وإذا حدث العكس ، فالعكس هو الصحيح ، ومن الأمثلة الكثيرة على ذلك : قوله الله تعالى : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن

تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين : ٤ـ٣٦] .

وأما الجدال بالتي هي أحسن :

فهو أسلوب من أساليب الدعوة ، وهدف الجدال أصلاً : تعاون الفريقين المتحاورَين على معرفة الحقيقة والتوصل إليها ، بحيث يدلي كلٌّ منهما بحججه وبراهينه محاولاً إقناع الآخر بما لديه ، وقد أصاب العلامة الرازي عندما قسّم البشر إلى ثلاث طوائف :

فالطائفة الأولى التي تتجه إليها بالحكمة هي طرف الكمال .

والطائفة الثانية التي تتجه إليها بالموعظة هي الواسطة ، وهم الذين ما بلغوا في الكمال إلى حدِّ الحكماء المحققين ، كما لم يبلغوا في النقصان والرذالة إلى حد المشاغبين المخاصمين ، بل هم أقوامٌ بقوا على الفطرة الأصلية ، والسلامة الخلقية ، ومعنى قوله تعالىٰ : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ

﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل : ١٢٥] ، أي : ادعُ الأقوياء الكاملين إلى الدين بالحكمة ـ وهي البراهين القطعية اليقينية ـ وعوام الخلق بالموعظة الحسنة ، وهي الدلائل اليقينية الإقناعية ، والتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل[١] .

لكن قد نرىٰ في الواقع المعاش بعض المتزمّتين المتشدِّدين ، الذين يمنعون الجدال هنا وهناك ، تحت حجج القداسة والمقدسات!!

والردُّ على ذلك ، أن الله تعالى أكد على الحوار والجدال ، وفي كل شيء ، فلا خطوط حمراء يُمنع تجاوزها ، ولا قضايا لا يجوز الحديث عنها ، إنما أكد الله ذلك من خلال تبيانه للناس ، أنه سبحانه وتعالى حاور ألدَّ أعدائه وهو إبليس ، ليبيّن من خلال ذلك مسألة الحوار في كل شيء ومع أي شيءٍ ، قال الله تعالى في ذلك : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ

(١) مفاتيح الغيب ـ التفسير الكبير ـ : ٥/ ٥٣٧ .

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص : ٧١ـ٨٥] .

إنها لوحة رائعة ، فيها من الدروس والعبر الشيء الكثير ، حيث إن الله سبحانه أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبىٰ ، إنه اعترض على ذلك الأمر الإلٰهي ، والاعتراض على أوامر الله مسألة كبيرة ، لكن هل أمر الله خازن النار أن يجعل إبليس مع حطب النار ؟! هل أمر الله بتعذيبه وما إلى هنالك ؟! .

أبداً ، إنما حاوره وأقام عليه الحجة ، وردَّ إبليس وجادل ، إنه قاس أمر الدين برأيه فأخطأ في ذلك .

لقد ظن أن الطين الذي خُلق منه آدم عليه السلام أدنى من النار التي خُلق منها هو ، فأفتىٰ بغير علم ، وأعطىٰ رأيه في مسألةٍ تختص بالله وحده .

إنه التكبر الإبليسي الذي جعل إبليس يعترض ويحتج

بأفضليته على آدم لأنه خُلق من نار ، بينما خَلق الله آدم من صلصال كثيف ، قال تعالىٰ في تصوير المسألة : ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٣٣] .

بل الأعجب في المسألة ، أن الله تعالى ـ وبعد أن أمر بطرد إبليس من الجنة ـ سمح باستمرار الحوار مع إبليس العاصي ، حيث طلب إبليس من الله أن يؤخّره إلى يوم القيامة لهدف عجيب هو إغواء بني آدم ! !

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩ـ٤٠] .

لكن الله سبحانه وتعالى أكّد على أن هذا الأمر يتم فقط مع الجماعة المستعدة للغواية ، أما الذين ساروا على نهج العبودية لله ، وانضبطت كل علاقاتهم بالله ، فإن الشيطان لايستطيع أن يؤثّر فيهم أبداً :

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر : ٤١ـ٤٢] .

وهناك لوحة قرآنية أخرى ، فيها دلالة واضحة على تأكيد الله على مسألة الجدل والحوار ، حتى بين الله وبين مخلوقاته ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ

فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة : ٣٠ـ ٣٣] .

إنها محاورة بين الله تعالىٰ وملائكته ، وفيها تبيان لمكانة بني آدم ، ومحور هذه المحاورة اختيار الله آدم خليفةً عنه على الأرض .

فلما أخبر الله تعالى الملائكة : ﴿إني جاعلٌ في الأرض خليفةً﴾ ، تساءل الملائكة متعجبين ومستعلمين : ﴿أتجعلُ فيها مَنْ يفسدُ فيها ويسفكُ الدماءَ﴾ .

ثم لماذا تستخلف من غير الملائكة مادام الملائكة في حالة طاعة وعبودية لك ؟!

جاء الرد الإلٰهي : ﴿إني أعلم مالا تعلمون﴾ .

ولعلّ الإنسان ـ وهو يقف أمام هذه اللوحة القرآنية ـ يتساءل : لماذا يجادل الله بعض مخلوقاته ، وهم الملائكة ،

في قضية لا علاقة لهم بها ، وهي قضية خلق آدم واستخلافه في الأرض ؟

إنه عدل الله ورحمته ، حيث جادل الملائكة ليبيِّن لهم الحجج الدامغة في مخلوقاته ، فهم لم يتصوروا أن الله تعالىٰ يضع بعض أسراره في بعض مخلوقاته ، ليرفعها إلى مراتب عالية جداً ، ولذلك أُصيبوا بالدهشة عندما طُلب منهم ـ وهم الملائكة المتفرغون للعبادة ـ أن يسجدوا لمخلوقٍ بشرٍ يُصيب ويخطئ .

***

وفي الحديث القرآني عن أسلوب أنبياء الله مع أقوامهم ، نرىٰ أسلوب الجدال بالتي هي أحسن هو العنوان الرئيسي لذلك كله ، بحيث نجد أن كل نبي من الأنبياء تحمَّل الكثير والكثير في سبيل تبليغ دعوة التوحيد ، ولم يتخذ إلا أسلوب الجدال والحوار ، ولنضرب بعض الأمثلة :

فنبي الله نوحٌ عليه السلام :

أرسله الله تعالى بشيراً ونذيراً ، وقام بتبليغ الدعوة ، واتخذ لذلك أساليب عديدة :

فتارةً يبيِّن لهم أن الأصل والأصح هو عبادة الله الواحد ،

وأن ماهم عليه من عبادة أصنام ينحتونها بأيديهم هو العمل الخاطئ ؛ الذي لا يجلب إلا الشقاء والخسران في الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

وتارةً يؤكد لقومه أنه لا يريد من عمله هذا إلا وجه الله ، فهو لا يهدف إلى كسب الأموال والمناصب ، قال تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : ١٠٥-١١٠] .

ولما لم ينتفعوا بأي أسلوب حواري حضاري سلمي ، هدَّدهم بعذاب الله ، قال تعالى :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح : ١-٤] .

إنها مرحلة طويلة ، قاربت ألف عام ، وهو عليه السلام يدعوهم بأساليب متنوعة ، وهم يقابلون ذلك باعتراضات ومواجهات غريبة ! !

فاعترضوا على كونه واحداً من البشر ، يأكل ويشرب وينام ، وكان بودِّهم لو أنه كان ملكاً من الملائكة ، قال الله تعالىٰ في معرض الحديث عن هذا الاعتراض :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٤] .

واعترضوا عليه بأن أتباعه فقراء وضعاف القوم ، وليسوا أغنياء وسادة .

وبالتالي لن يؤمنوا به حتى يطرد هؤلاء !! ﴿ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١١-١١٤] .

وبدلاً من أن يتجاوبوا مع تلكم الأساليب الحوارية ، انطلقوا إلى الردِّ بالشتائم وما إلى هنالك ، فهل يردُّ على الشتائم بمثلها ؟!

لقد اتهموه بالضلالة فلم يردَّ عليهم : بل أنتم الضالون .

إنما نقل القضية إلى ماهو أهم منه ، وهي مسألة إرسال الله له وحمل لواء النصح والتعليم لهم : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٦٠ـ٦٢] .

واتهموه بالجنون ، فلم يردَّ عليهم بالمثل ، إنما اكتفىٰ بالإعراض ، واتجه إلى ماهو أهم ، وهي مسألة مزاولة وممارسة الدعوة إلى الله تعالىٰ :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون : ٢٥ـ٢٦] .

واستمر عليه السلام على خطِّ المجادلة بالحسنى والحوار السلمي الهادئ ، وكان يهتمُّ كثيراً بمسألة إقامة الحجج والبراهين ، وتقديم الأدلة العقلية على توحيد الله وربوبيته ، مستدلاً بكل ظواهر الكون ، وكان بين الحين والآخر ، يقدِّم تقريره إلى الله تعالى .

ففي سرد وقائع القصة : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح : ١٠ـ٢٠] .

إنه يدعوهم إلى فضيلة التوكل على الله ، وهم يدعونه إلى الكفر بالله ، ثم يهددونه بالطرد والرجم!!

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم : ١١-١٢] . وكانت النتيجة الحتمية : انتصار الحق وإهلاك الباطل : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٩-١٢٠] .

وفي قصة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام مع قومه :

يبرز الجانب المهم وهو التركيز على الحوار والجدال بالحسنىٰ :

ففي بداية الدعوة بيَّن إبراهيم عليه السلام كل البراهين والحجج الدامغة ، بحيث وجَّه إليهم ما يحرك عقولهم : كيف تعبدون أصناماً تنحتونها بأيديكم ؟ وكيف تطلبون منها الرزق وهي العاجزة عن ذلك ؟ قال الله تعالىٰ في تصوير ذلك :

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ

﴿إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

[العنكبوت : ١٦ـ١٧]

ثم ركَّز في دعوته على أبيه (آزر) والذي كانت صنعته نحت الأصنام!!

لقد حاوره وقدَّم الحجج وتلطَّف معه حتى في انتقاء الكلمات ، فما كان من الأب إلا أن هدَّد بالطرد والرجم بالحجارة!!

فقابل إبراهيم عليه السلام ذلك التهديد والوعيد بالوعد بأن يستغفر الله ويطلب منه ألا يمسَّه بعذاب نتيجة عناده ، وفي ذلك دروسٌ كثيرةٌ لكل من يسير على طريق الدعوة إلى الله تعالىٰ ، وخاصةً مع الشاردين والمنحرفين :

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ

سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾[1] [مريم : ٤١-٤٧] .

وهذا أمرٌ في غاية العجب! إبراهيم عليه السلام يريد لأبيه الهداية والرشاد ، وآزر يريد منه الخروج من البلاد ، أريد حياته ويريد موتي!!

ومن نماذج مناظراته عليه السلام مع قومه ، تلك التي حكاها القرآن الكريم :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الشعراء : ٦٩-٨٣] .

لقد بدأ الحوار بطرح أسئلة مثيرة :

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع كتاب : أسس دعوة خاتم النبيين . للمؤلف : ٣٧-٦٢ .

﴿ما تعبدون﴾ فكان جوابهم حجة عليهم!! ﴿قالوا نعبدُ أصناماً فنظلُّ لها عاكفين﴾ .

فطرح سؤالاً أكثر إثارة ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون ۞ أو ينفعونكم أو يضرُّون﴾ فكان لا بدَّ أن يجيبوا بشيءٍ من الصراحة والوضوح ، ولكنهم حاولوا أن يلصقوا ذلك بآبائهم : ﴿قالوا بل وجدْنا آباءَنا كذلك يفعلون﴾ .

لكن هل يفيدهم التقليد الأعمى للآباء والأجداد ؟ .

أبداً : فالنافع والضار ، والخالق والرازق ، والمحيي والمميت ، والشافي والمتجاوز عن الأخطاء ، هو الله وحده .

أما قصة مناظرته مع ملك بابل الجبار (نمرود) ، ففيها دلالات واضحة على مسألة الجدال بالتي هي أحسن ، على الرغم من الموقف الاستكباري الذي انتهجه (نمرود) في الاحتجاج ، ولذلك طرح إبراهيم مسألة إحياء الله للكائنات ، وإماتتها بمشيئته وقدرته ، فما كان من (نمرود) إلا أن تبجَّح وادعىٰ أنه كذلك يحيي ويميت!!

واستدل على كذبه وادعائه هذا ، بأن استدعىٰ شخصين محكومين ، فعفا عن المحكوم الأول ، وأمر بقطع عنق

الثاني ، وقال لإبراهيم : ها أنذا أحييت الأول وأمتُّ الثاني ! !

فردَّ عليه إبراهيم عليه السلام أن هذه الشمس التي يراها الناسُ يأتي اللهُ بها من المشرق كلَّ يوم ، فإنْ كنتَ يا نمرودُ ربّاً فدعْها تأتي من الغرب ، لكن أنَّىٰ للنمرودِ ذلك ؟! قال تعالى في ذلك : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

لكن وكعادة المعاندين في كل زمان ومكانٍ ، لم تنفعهم هذه الحوارات الهادفة وذلك لإصرارهم وعنادهم على الباطل ، فأراد إبراهيم عليه السلام إقامة الحجة عليهم بشكل ملموس ومحسوس .

فحمل فأسه ودخل إلى مكان تجمّع أصنامهم ، وراح يكسّرها ، حتى إذا ما انتهىٰ من ذلك كله ، علَّق الفأس على كتف كبير الأصنام .

وفي اليوم التالي جاؤوا إلى مكان العبادة ، ولما دخلوا رأوا منظراً مفزعاً ! ! إن الأصنام الآلهة قد كُسِّرتْ رؤوسها ، فتشاوروا فيما بينهم ، واتفقوا على أن من قام بذلك هو إبراهيم

عليه السلام ، وأتوا به وسألوه عن ذلك ، قال : إن الذي فعل ذلك هو كبير الأصنام ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، وبالفعل تحرَّك في داخلهم شيءٌ قليلٌ من التفكير وقالوا : حقاً هؤلاء لا حراكَ فيهم فكيف نعبدهم ؟!

ثم عادوا إلى نصرة آلهتهم فأمروا بإحراق الخليل إبراهيم ، لكنها عناية الله للموحدين في كل زمانٍ ومكانٍ ، وكانت النتيجة نصراً مؤزراً ، لقد لجؤوا إلى سياسة التهديد والتعذيب ، وجمعوا الحطب ، وأوقدوا ناراً عظيمةً ثم ألقوه فيها ، ولكن أنَّىٰ ذلك كله ومعه الله الواحد القهار ؟!

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ

بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١ـ٧١] .

* * *

لكن ولكي لا يحتج أحدٌ على أن هذه النماذج القرآنية قام بها أنبياء الله فقط ، وهم على ماهم عليه من المكانة الرفيعة والأخلاق الفاضلة ، جاء القرآن بنماذج أخرىٰ في مجال الجدال بالحسنىٰ والحوار السلمي ، من ذلك :

أن الله سبحانه وتعالىٰ علَّم حبيبه محمداً ﷺ كيف يردُّ على اليهود الذين أنكروا تنزّل كتب سماوية على أحدٍ من البشر ، وكان الهدف من إنكارهم ذلك : إنكار كل ما جاء في القرآن الكريم .

وكانت الالتفاتة الرائعة في هذا أن الله علَّم الرسول أن

يسألهم عن الكتاب الذي نزل على نبيّ بني إسرائيل وهو موسى عليه السلام ، فإن اعترفوا بالتوراة فلا بدَّ أن يعترفوا بالقرآن ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

ومن ذلك أيضاً :

ما يقع فيه كثير من المجادلين ، وذلك حينما ينكرون وحدانية الله ، ويلجؤون إلى اتخاذ آلهة من دونه ، فيعبدونها ويقدمون إليها القرابين ، وذلك بهدف جلب المنافع ودفع الضرر ، وقد علَّم الله رسوله محمداً ﷺ كيفية مجادلة أمثال هؤلاء ، وركز على مسألة طرح الأسئلة الدقيقة ، وهذا منهج في الجدال الحسن ، لو عاشه الدعاة إلى الله مع الآخرين ، بعيداً عن الشتائم والاتهامات والمهاترات والتكفير والزندقة وما إلى هنالك ، لفتحوا قلوب العباد قبل فتح البلاد ، قال الله تعالى :

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ

لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ـ ٩٢].

إذاً :

لابد في حال الجدال بالتي هي أحسن أن يعلن الطرفان عن استعدادهما للخضوع للحقيقة حينما يتوصلون إليها ، ذلك لأنه لا أحد يملك الحقيقة بشكل مطلق ، إنما قد تمتلك أنت (٤٠٪) منها ، ويملك الآخر (٢٠٪) منها ، ويملك الثالث (٤٠٪) منها ، فإذا اجتمع الناس وتنازل كل واحدٍ عن عصبياته ، وأخذ بوجهة نظر الآخرين ، فإن الكل سيتوصلون إلى الحقيقة أنَّىٰ كانت ، ولاضيرَ إن اعترف المخطىءُ أنه لم يكن يملك الحقيقة ، بل علىٰ العكس تماماً ، فالذي يتراجع عن تصوّراته ، ويعترف بأخطائه ، فهو الرجل الشهم الخلوق :

وَمَنْ ذا الذي تُرْضَىٰ سجاياهُ كُلُّها كفىٰ المرءَ نُبلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ[1]

وهذا المنهج الجدلي هو منهج قرآني ، قال تعالى وهو في معرض تعليم رسوله ﷺ قاعدةً رائعةً :

﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٢٤] .

كذلك فعلىٰ المتحاورين أن يتأدَّبوا بالآداب العامة ، فلا يتلفظون إلا بالكلمات اللبقة المهذبة ، ولا يتعرضون لشتم الآخرين وسبِّهم ، لأن ذلك يؤدي إلى ردَّة فعل ، كما قال تعالىٰ :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] .

وقال رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي وغيره : « ليس المؤمن بالطَّعَّان ، ولا اللعَّانِ ، ولا الفاحش ، ولا البذيء » .

كذلك ، فعلى المتحاورين تقديم الأدلة المنطقية

---

(١) للتوسع يراجع كتاب : الحكم العطائية في ثوبها الجديد ، للمؤلف : ١٥٧ـ١٧٩ .

السليمة ، فإن كان الكلام من المنقول فيجب أن يكون صحيحاً ، وإن كان مدَّعياً فلا بدَّ من الدليل .

ولابدَّ من الابتعاد عن المرويات الضعيفة والمكذوبة ، والخرافة والأساطير ونحو ذلك ، وخاصةً وأننا نعيش في عصر العلم والمعرفة .

والقرآن الكريم قد حشد مئات الأدلة العلمية على مسألة توحيد الله مثلاً ، خاصةً وهو يركز على مسألة الاستدلال ، ولم يلتفت إلى ما تناقله الآباء والأجداد ، بل اعتبر ذلك نقطةَ ضعفٍ ، فمتى كانت أمور العقيدة تُورّث دون تمحيص ؟!

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة : ١١١] .

فمن حمل البرهان والحجة والمنطق ، فعليه أن ينفتح على كل الناس ، يجادلهم ويحاورهم ، لكن تحت الشعار القرآني (بالتي هي أحسن) ، وإلا ؛ فلا!!

الفصل الثاني

القول (بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ)

في تحديد منهج القول ومدى مخاطر عدم التقيّد بالتي هي أحسن ، قال الله تعالى :

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء : ٥٣] .

وفي أسباب نزول هذه الآية ، قال العلامة الواحدي (ت : ٤٨٧هـ) رحمه الله تعالى :

نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك أن رجلاً من العرب شتمه ، فأمره الله تعالى بالعفو .

وقال الكلبي : كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بالقول والفعل ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1] .

---

(١) أسباب نزول القرآن : ٢٩٥ .

إنه تعليم فريد لمنهج المجادلة مع المخالفين ، وذلك عن طريق اللين وبالتي هي أحسن ، وفي تفسير وبيان معاني الآية ، قال الدكتور وهبة الزحيلي :

. . . يأمر الله تعالى رسوله بأن يبلِّغ عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبات الناس من المشركين وغيرهم ومحاوراتهم معهم الكلام الأحسن للإقناع ، والكلمة الطيِّبة ، وهو ألا يكون بيان الحجة مخلوطاً بالشتم والسب والأذى ، كما قال تعالى في آية أخرى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وقوله تعالى : ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

وعلَّة ذلك كما قال تعالى : ﴿إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ أي إنْ لم يقولوا الكلام الأحسن والكلمة الطيبة ، فإن الشيطان يفسد الأمور بين المؤمنين والمشركين ، ويثير الفتنة والشر ، ويوقع المخاصمة والمقاتلة ويغري بعضهم ، لأنه عدو لآدم وذريّته عداوة ظاهرة بيّنة ، ولهذا نهىٰ الشرع أن يُشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة ، فإن الشيطان ينزغ في يده ، فربَّما

أصابه بها ، روىٰ أحمدُ والشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يُشيرنَّ أحدُكُمْ إلى أخيهِ بالسلاحِ ، فإنه لا يدري أحدُكُمْ لعلَّ الشيطانَ أَنْ ينزغَ في يده ، فيقعَ في حفرةٍ من النار » .

وسبب نزغ الشيطان للإنسان ما قاله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ أي إن الشيطان عدوٌّ ظاهر العداوة للإنسان ، وقد أعلن عداوته منذ القدم ، كما حكىٰ القرآن : ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾

[الأعراف : ١٧]

ثم فسَّر الله تعالى الطريق الأحسن الألين الذي لا مخاشنة فيه بقوله : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ أي ربكم أيها الناس أعلم بمن يستحق منكم الهداية والتوفيق للإيمان ومن لا يستحق ، فإن شاء رحمكم فأنقذكم من الضلالة ووفقكم للطاعة والإنابة إليه ، وإن شاء عذبكم فلا يهديكم للإيمان ، فتموتوا على شرككم ، فهذه هي الكلمة ونحوها التي تقال لهم ، ولا يقال لهم : إنكم من أهل النار ، وإنكم معذبون ، وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر .

وقوله تعالى : ﴿أعلم﴾ بمعنى عليم ، نحو قولهم : ﴿الله

أكبر﴾ بمعنى كبير ، فلا مجال للمقارنة أو الموازنة بينه وبين غيره .

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾ أي وما أرسلناك يا محمد عليهم حفيظاً ورقيباً ووكيلاً موكولاً إليك أمرهم ، تحاسبهم على أعمالهم ، وتقرّهم على الإسلام وتجبرهم عليه ، إنما أرسلناك نذيراً وبشيراً فقط ، فمن أطاعك دخل الجنة ، ومن عصاك دخل النار ، فتلطف في دعوتهم ، ولا تغلظ عليهم ، ودارِهم ، ومُرْ أصحابك بالمداراة والاحتمال .

﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ أي وربك أعرف بكل من هو في السموات والأرض ، وأعلم بأحوالهم ومقاديرهم كلها علم إحاطة وانكشاف : ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

فهو ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أدرىٰ وأعرف بما يستأهل كل واحدٍ منهم[1] .

* * *

(١) التفسير المنير : ١٥/٩٩ـ١٠١ ، وللتوسع يراجع : فتح القدير للإمام الشوكاني : ٣/٢٧٨ ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام النسفي : ٢/٢٥٨ .

وهكذا نرى التركيز على منهج القول بالتي هي أحسن في كثيرٍ من الصور ، حيث تؤكد الشريعة الإسلامية على طيب الكلام وطهره ، وبالتالي فهو خُلُق قرآني رفيع .

والكلمة الطيبة تعمل في البشر عمل السحر أو أكثر ، حيث تُدخل إلى النفس الطمأنينة والهدوء والراحة ، وتشرح الصدر ، وتدل على عقل الإنسان وطويته :

إنَّ الكـلامَ لَفِـي الفـؤادِ وإنَّمـا جُعِلَ اللسانُ على الفؤادِ دَليلا

ويعتبر القرآن الكلام الحسن هو الدعوة إلى الخير ، وهو الطريق الموصل إلى الفلاح ، قال الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

والتلطف في الحوار ، والحديث الحسن ، والجدال بالحسنىٰ طريق موصل إلى الهداية ودخول الجنة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [الحج : ٢٣ـ٢٤] .

ولأهمية طيب القول وحسن الكلام فقد جعله الله تعالى من

العهد الذي أخذه على الأمم السابقة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة : ٨٣] .

والكلام الطيِّب الحسن هو الذي يتقبله الله ويُصعده إليه ، قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر : ١٠] .

وسبب تقبُّل الله تعالى للكلم الطيب الحسن ، أنه الوحيد الذي ينفع ويثمر ـ كالنخل ـ بشكل دائم ، وقد رسم القرآن الكريم صورة رائعة لذلك ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٤ـ٢٧] .

ومن أدب الحديث وحسن الكلام وطيبه ، مخاطبة الرسول ﷺ بكل أدب ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات : ٢-٣] .

ويتعدّىٰ القول الحسن اللين إلى الحديث مع الوالدين ، وإلا فإن أساء الإنسان لأحدهما أو كليهما فقد حبط عمله ، مصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ۝٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾ [الإسراء : ٢٣-٢٤] .

بل حتى مع اليتامى ، فالسبيل الذي ترضاه الشريعة في مخاطبتهم وما إلى هنالك ، هو الكلام الحسن والقول الجميل ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ [النساء : ٥] .

بل وحتى مع السائلين ، فإما أن تعطيه من مال الله ، أو

تردَّه بطيب القول ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾ [البقرة : ٢٦٣] .

وجاءت السنَّة الطاهرة لتؤكد على منهج الكلام الحسن والقول الطيب ، وذلك عبر أحاديث نبوية كثيرة ، منها قوله ﷺ : « الكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ » .

وقوله : « مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فَلْيَقُلْ خيراً أو لِيَصْمُتْ » .

ومنها قوله : « لايستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتىٰ يستقيمَ قلبُهُ ، ولا يستقيمَ قلبُهُ حتىٰ يستقيمَ لسانُهُ » .

ومنها قوله : « اتقوا النارَ ولو بِشِقِّ تمرةٍ ، فإنْ لم يكنْ فبكلمةٍ طيبةٍ » .

من هنا نفهم السرَّ وراء تكرار مسائل اللين وخفض الجناح والقول الطيب والكلمة الحسنة وما إلى هنالك ، ثم ننتبه إلى شمولية هذا المنهج القرآني النبوي ، حيث لا ينحصر ذلك بين الرسول ﷺ وأتباعه ، ولا حتىٰ بين المؤمنين ، إنما يتعدىٰ ذلك إلى كل الناس ، بل إلى كل شيء!!

وهذا ما نلمحه في كتاب الله تعالى ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥] .

ووصف القرآن الكريم رسول الله ﷺ وصفاً رائعاً ، حدَّد من خلال ذلك أهم ميزاته التي يتحلَّىٰ بها ، وهي الرأفة والرحمة ، فقال تعالى : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

وهذا هو السبب الرئيسي في التفاف الناس من حوله ، قال الله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

ولم يختص ذلك بعلاقته مع المؤمنين ، إنما تعدىٰ ذلك إلى أن يضمَّ كل العوالم ، جنَّها وإنسها وحيواناتها وهوامَّها ، فكان بحقٍّ كما وصفه الله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

وهكذا يجب أن يكون المسلمون جميعاً ، أن يكونوا الأمة المتكافلة المتعاونة علىٰ الخير ، الآمرة فيما بينها بالمعروف والناهية عن المنكر ، مصداق ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة : ٧١] .

وقدوة الجميع هم أنبياء الله تعالى ، فهم الفئة المتصفة بهذه الصفات الحميدة ، من قول حسن وكلام طيب وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وبالتالي فكل أنبياء الله ورسله حملوا لواء النصح والإرشاد والتوجيه للناس ، كما جاء على لسان شيخ الأنبياء نوح عليه السلام : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٢] .

وبعد دعوة صالح عليه السلام قومه ، وقف ليذكرهم بما حدث : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٩] .

وهكذا ، فمن لم يستطع النصح أو الإدلاء بكلام طيِّب وحسن ، فعلىٰ الأقل عليه أن يُعرض عن مجالس اللغو ، لأنَّ

ذلك من صفات المؤمنين الذين ذكرهم الله تعالى بقوله : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون : ١-٣] .

قال العلامة الزمخشري (ت : ٥٣٨هـ) رحمه الله تعالىٰ :

اللغو : ما لا يعنيك من قولٍ أو فعلٍ ، كاللعب والهزل وما توجب المروءة إلغاؤه واطِّراحه ، يعني : أن بهم من الجدِّ ما يشغلهم عن الهزل .

ولما وصفهم بالخشوع في الصلاة ، أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ، ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف[1] .

وحقيقة المسألة أن هذه صفة من صفات عباد الرحمن ، والذين ذكرهم القرآن الكريم بشيءٍ من التفصيل ، قال الله تعالى : ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۝٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝٦٤ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، ٤/٢١٨ .

وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان : ٦٣ـ٧٢] .

وفسَّر الإمام الطبري رحمه الله ذلك بقوله :

وأولىٰ الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يُقال : إن الله أخبر عن هؤلاء المؤمنين الذين مدحهم بأنهم إذا مروا باللغو مروا كراماً ، واللغو في كلام العرب هو كل كلامٍ أو فعلٍ باطلٍ ، لا حقيقةَ له ولا أصلَ ، أو ما يستقبح .

فسبُّ الإنسانِ بالباطل الذي لا حقيقة له ، من اللغو ، وكذلك تعظيم المشركين آلهتهم من الباطل الذي لا حقيقة لما عظموه على نحو ما عظموه ، وسماع الغناء مما هو مستقبح في أهل الدين ، فكل ذلك يدخل في معنى اللغو ، فلا وجه ـ إذا كان كل ذلك يلزمه اسم اللغو ـ أن يقال : عنىٰ به بعض ذلك

دون بعض ، إذ لم يرد لخصوص ذلك دلالةٌ من خبرٍ أو عقل[1] .

أجل :

إن عباد الرحمن يكرمون أنفسهم ، فلا يضيِّعون أوقاتهم في اللغو ، لأنهم يدركون ماذا يعني الوقت ، فهو أحسن حالاً وأفضل رأسمالٍ من الذهب والفضة ، فهو العمر كله ، فهل يضيِّع العقلاء عمرهم في اللغو من الكلام أو العمل ؟! هل يبدِّدُون رأسمالهم في الكلام الذي لا طائلَ منه ؟ هل يخسرون العمرَ في اللغو هنا وهناك ؟

أبداً ، فهم ـ عباد الرحمن ـ إذا مرُّوا باللغو مرُّوا كراماً ، أي مرُّوا مروراً سريعاً ، لا يجلسون مع اللاهين ، ولا يمكثون مع المضيِّعين أوقاتهم سُدىً ، إنما ينطلقون مسرعين نحو ما هو أهمُّ وأنفعُ ، لهم ولغيرهم ، في دنياهم وآخرتهم .

* * *

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ١٢/ ٢١٩ .

ضوابط القول

لكن للقول ضوابط لابدَّ من مراعاتها ، وأهمها[1] :

١ـ التأنِّي في الكلام لأن الإسراع فيه يحرم السامع استيعاب الكلام وفهمه ، وهذا التأني كان يفعله رسول الله ﷺ ، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري « أن النبي ﷺ كان إذا تكلمَ بكلمةٍ أعادها ثلاثاً حتى تُفهم عنه » .

٢ـ الابتعاد عن التكلّف والتعاظم والتفاصح ؛ لأن الداعي إذا فعل ذلك فإنه ينفِّر السامعين منه ، فلا يستمعون لقوله ، وقد جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هلك المتنطّعون ، هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون » والتنطع في الكلام : التفاصح فيه والتعمق فيه ، كما جاء في حديث آخر قول الرسول ﷺ : « إن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامةِ الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون » .

والثرثار : هو كثير الكلام تكلّفاً ، والمتشدّق : المتطاول

---

(١) للتوسع يراجع : الدعوة إلى الله على بصيرةٍ للدكتور عبد المنعم حسنين : ٩٣ـ٩٧ والدعوة إلىٰ الله تعالىٰ عبر العصور ، للمؤلف : ١٧٧ـ١٩٤ .

على الناس بكلامه ، الذي يتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعظيماً لكلامه ، والمتفيهق : هو الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه ، ويغرب به تكبراً وتعالياً وارتفاعاً وإظهاراً للفضيلة على غيره .

٣ـ الابتعاد عن روح التعالي على السامعين ، واحتقارهم وإظهار فضله عليهم ، لأن هذا يقطع ما بين قوله وبين قلوب السامعين ، فلا يطيقون سماع قوله وإن كان حقاً ، وينفرون منه ، فلا يأتون بشيءٍ مما يسمعون .

فيجب على الدعاة إلى الله على بصيرةٍ أن يكون كلامهم كلام الناصح الشفيق المتواضع الدال على الخير ، لأن الدعاة إنما يبلغون رسالة الله إلى المدعوين ، ولا يبلغون لهم علمهم وفضلهم ، فعليهم أن يتلطّفوا بالقول حتى يثيروا رغبة المدعوين إلى الاستماع إليهم .

وفي كتاب الله الحكيم أمثلةٌ كثيرةٌ على ضرورة التلطف في القول ، فقد قال تعالىٰ عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم : ٤٢] .

فذكر إبراهيم عليه السلام في خطابه لأبيه رابطة الأبوة التي من شأنها أن تجعل الابن حريصاً على مصلحة أبيه ، وتجعل الابن جديراً بأن يصغي لخطاب أبيه .

كما قال تعالىٰ عن هودٍ عليه السلام :

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٥] .

فقد خاطب هود عليه السلام قومه بكلمة ياقوم حتى يشعرهم بأنه منهم في النسب ، وأنه يريد الخير لهم ، وهذا الخطاب أدعىٰ إلى استجابتهم وإلى إشعارهم بأن من يخاطبهم حريص على إرشادهم إلى صراط الله المستقيم .

وجاء في السنة النبوية كذلك ما يدلُّ على أن الرسول الكريم كان يتلطَّف في القول :

فقد ذكر ابن هشام في سيرته أن الرسول ﷺ أتىٰ إلى بطنٍ من بطونِ كلبٍ في منازلهم يقال لهم (بنو عبد الله) فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، حتى إنه كان يقول لهم : « يابني عبد الله ، إن الله عز وجل قد أحسن اسم أبيكم »[1] أي : فأحسنوا الاستجابة واقبلوا الدعوة وآمنوا بالله ورسوله .

٤ـ استثارة همم المدعوين ، إذا وجد الداعي إلى الله ضرورة إلى ذلك ، دون نفاق أو مداهنة ، فالداعي إلى الله

---

(١) السيرة النبوية : ٢/ ٣٣ .

على بصيرةٍ يجعل لكل مقام مقالاً ، وقد يحتاج أحياناً إلى تذكير المدعوين بطيب عنصرهم وشرف نسبهم ، الأمر الذي يجعلهم يسلكون سلوكاً حسناً لائقاً بهم ، فيكونون مع الأخيار المطيعين لله ، ويبتعدون عن العصاة المنغمسين في الشهوات والرذائل ، فيستطيع الداعي إلى الله بهذا الأسلوب أن يستثير هممهم ، ويشوِّقهم لطاعة الله .

على أن الداعي لا ينبغي أن يسرف في الثناء على المدعوين حتى لا يتحول كلامه إلى نوعٍ من النفاق والمداهنة ، بل يكون كلامه تشويقاً للمدعوين على قبول الحق ، وإعانة لهم على هذا القبول ، وبياناً لما في مجتمعهم من علل تحتاج إلى علاج ، وحثاً على الطاعة لما في الطاعة من خيرٍ لهم .

كما قال هودٌ عليه السلام لقوم عاد ، مما ذكره الله جل جلاله في قوله : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود : ٥٠-٥٢] .

وما ذكر الله عز وجل لذلك عن صالح عليه السلام وما قال

لقومه في قول الله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء : ١٤١ـ١٥٢] .

فالداعي إلى الله على بصيرةٍ ينبغي له أن يختار لكل مقامٍ مقالاً يناسبه ، حتى يصل إلى قلوب المدعوّين ، فيصل بذلك إلى غايته التي يرجوها ، ألا وهي إقناع الناس بقبول الحق وهدايتهم إلى سواء السبيل[1] .

* * *

(١) للتوسع يراجع كتاب : عالمية الدعوة إلى الله تعالى ، للمؤلف : ٣٧ـ٤٠ . ط١ / دار المكتبي .

نماذج من قصص الأنبياء مع الكافرين

في القرآن الكريم خطوط عريضة لكل من أراد السير في الاتجاه الصحيح ، من ذلك قول الله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف : ١١١] .

لذلك ففي قصة موسى عليه السلام مع فرعون نرى الوضوح في مسألة كيفية الدعوة إلى الله تعالى ، فالقضية أولاً وأخيراً يجب أن تكون بالقول اللين ! !

لكن كيف يكون اللين مع الطاغية فرعون ؟ !

وفرعون أفسد في الأرض ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص : ٤] .

وفرعون تكبَّر واستعلىٰ ، وتفاخر بنعم الله عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ﴾ [الزخرف : ٥١] .

وفرعون استعبد الرعية، وأمرهم بالسجود والطاعة العمياء، فسجدوا وهم يهتفون : يحيا ربُّنا الأعلى!! قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾[المؤمنون : ٤٥ـ٤٨] .

وفرعون بطش بطشاً لا مثيل له ، قال الله تعالى : ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٩ـ٥٥] .

وفرعون كذب بآيات الله وصدَّ عن السبيل ، قال الله تعالىٰ :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ [غافر : ٣٦ـ٣٧] .

وفرعون ظلم عباد الله ، فعذّب الناس عذاباً كبيراً ، وابتدع

مسألة قتل الأطفال الذكور واعتدىٰ على النساء ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ [البقرة : ٤٩] .

وفرعون أعلن كفره ، واستهزأ بنبوّة موسى عليه السلام ، وأنكر وجود الله تعالىٰ ، قال عز وجل : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٧٨] . ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٣] .

وفرعون تبجَّح ونادىٰ بكل وقاحة : أنا ربكم الأعلى ! ! قال تعالى في الحكاية : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص : ٣٨] .

وقال أيضاً : ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ [النازعات : ٢٤ـ ٢٥] .

مع كل هذه الصفات السيئة في فرعون ، أمر الله تعالى موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن ينطلقا إلى فرعون بهدف تبليغه الدعوة .

لكن هل قال الله لهما : فجِّرا منشآته الاقتصادية ؟ هل قال لهما : ازرعا القنابل في قصره ؟ هل قال لهما : أَرْبِكَا واقعه الأمني ؟ هل قال لهما : اغتالا كل من له علاقة به ؟ هل قال

لهما : انهبا واسرقا من الأماكن العامة ؟!!

أبداً ، فهذا لا تعرفه شرائع السماء ، إنما هي أحلام صبيةٍ قليلي الثقافة ، وقليلي الإدراك ، استهوتهم المناصب والأموال ، فاخترعوا ذلك وألصقوه بالدين ، والدين منهم براء براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام!! .

لقد كان توجيهاً ربانياً من نوعٍ آخر ، ليكون فيه الدروس والعبر لكل من يتصدَّرُ للدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ، وفي كل زمان ومكان .

قال الله تعالىٰ في ذلك التوجيه الرائع : ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [طه : ٤٢ـ٤٧] .

وعندما يتأمل الباحث في هذه الآيات يرى أمراً عجباً .

إنه توجيه الله تعالى لموسى وهارون بالتلطّف مع فرعون ، حتى الكلمة يجب أن تُنتقىٰ من ألين الكلمات وأرقّها عذوبةً ﴿فقولا له قولاً ليّناً﴾ والتعليل: عسىٰ أن يهتدي ويخشى ويتذكر!!

ثم يختتم المشهد الرائع بقوله تعالى : ﴿والسلام على مَنِ اتبعَ الهدى﴾ ليبقىٰ اللقاء بينهم وبينه ممكناً ، فلا خصومات ولا منازعات ، ولا شتم ولا سبّ ، إنما السلام على من اتبع الهدى!!

وهكذا فموسى عليه السلام هو المكلَّف بهذا القول أكثر ، وهو المسؤول عن تبليغه ، بينما يعاونه هارون لأنه الوزير ، كما أخبر الله تعالى بقوله : ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات : ١٥ـ٢٦] .

وإذا كان هذا خطاب موسى عليه السلام لفرعون ، فكيف يجب أن يكون الخطاب للمؤمنين أو الشاردين ؟! ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء : ٥٣] .

* * *

الفصل الثالث

الجدال مع أهل الكتاب ، لكن :

﴿ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

كان الصراع في العهد المكي بين الوثنيين وبين المسلمين فحسب ، لذلك لا يجد الباحث آيات قرآنية تحاور أهل الكتاب .

لكن عندما حدثت الهجرة إلى الحبشة ، تبيّن مدى قرب النصارىٰ من المسلمين ، وذلك خلال دفاع النجاشي ـ ملك الحبشة ـ عنهم واحتفاله بهم ، لذلك قال تعالى يخلِّد هذا الموقف الرائع : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

[المائدة : ٨٢ـ ٨٣]

ثم كانت الهجرة من مكة إلى المدينة المنورة ، ولم يكن في المدينة نصارىٰ إنما كان فيها يهود ، فاتخذ رسول الله ﷺ معهم الحكمة ، وعقد معهم معاهدة ، وكتب لهم وثيقة التعايش السلمي ، بيَّن من خلالها قواعد العلاقات بينهم وبين المسلمين ، من خلال رسم الحقوق والواجبات على كلا الطرفين .

لكن اليهود هم اليهود ، شعب لا عهد له ولا ميثاق ، شعارهم في الحياة : الخداع والمكر والإغراءات المادية ، ومن ثم القتل والتدمير ، حتى مع الأنبياء عليهم السلام ، ولذلك راحوا يحمِّسون شباب الأوس والخزرج ضد المسلمين .

وكان موقف رسول الله ﷺ يحمل طابع الحوار السلمي الهادىء ، فلم يتورَّطْ معهم بصراعات لا طائلَ تحتها ، إنما كما قرر القرآن الكريم : ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

ثم جاء الأمر الإلٰهي إلى رسوله ﷺ بالحوار والدعوة إلى دين التوحيد ، ليقف الطرفان على أرضية مشتركة ، لا يعلو فيها أحدٌ على أحد ، ولا يتعبَّد بعضهم بعضاً ، إنما هي دعوةٌ

إلى نبذ الشرك ، والاتجاه إلى الواحد الأحد سبحانه ، فلا بشراً ولا حجراً ولا نبياً ولا راهباً مع الله ، إنما الإله الواحد هو المعبود وحده .

فإن وافقوا على ذلك دخلوا في جناح السلم والحوار ، وإلا فدعهم يا محمد وما هم عليه ، وأعلنْ ومن معك أنكم مسلمون لله وحده ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

لكنهم رفضوا واحتجوا بأن عزيراً هو ابن الله!! ومنهم من قال إن الله هو المسيح ابن مريم!! ومنهم من قال : إن الملائكة بناتُ الله ، قال تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١] .

ثم أوضح القرآن الكريم بشكل أوضح رفضه لمبدأ الطاعة والعبادة لأي أحدٍ إلا لله ، قال تعالىٰ : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ

ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ٧٩ـ ٨٠] .

ثم وجه القرآن الكريم رسول الله إلى طرح قضية نبوَّته ، وهي التي كانوا يهدِّدون بها الأوس والخزرج في المدينة المنورة ، متبجِّحين صباحَ ومساءَ قائلين : سيُبعث فينا نبيٌّ آخر الزمان ، وسننتصر عليكم .

وبالتالي فالنبي الخاتم ﷺ هو المذكور في كتبهم السماوية ، وهو الذي بَشَّرَ به الأنبياءُ السابقون ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

وقال أيضاً :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ﴾ [الصف : ٦] .

لكن اليهود هم اليهود ، لقد حاولوا إخفاء الحقيقة ، فتكتّموا عن البشارات ، ولم يتحدّثوا ببعثة رسول الله ﷺ ،

فجاء القرآن ليفضح ذلك كله ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٩] .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

وأصرُّوا على كتمان الحقيقة ، فتحدَّاهم القرآن بأن يُخرجوا التوراة للناس ، ففيها هذه البشارات بالنبي الخاتم ، قال تعالىٰ :

﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٩٣ـ٩٤] .

فكيف قابل اليهود قضية الحوار القرآني النبوي ؟

لقد وقفوا موقف التعجيز والاستهزاء والسخرية ، فراحوا يُشيعون في المدينة المنورة مطالب غير معقولة ، يبتغون من خلالها إظهار عجز رسول الله وضعفه ! !

فتارةً يطلبون من رسول الله أن يُنزل عليهم كتاباً من السماء ! وتارةً يريدون رؤية الله في اليقظة ! قال تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ

مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء : ١٥٣ـ ١٥٥] .

ولما لم يستفيدوا من هذه القنوات الحوارية ، توجَّه القرآن إلى قضية أخرىٰ .

إذا كنتم ـ أيها اليهود ـ تنتمون إلى وحي السماء ، وتدَّعون الإيمان بما جاء على نبيكم موسى عليه السلام ، وتؤمنون بالتوراة ، فلماذا لا تؤمنون بالرسول الخاتم ، وبما جاء به من السماء وهو القرآن الكريم ؟!

﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة : ٥٩] .

فتحوَّلوا إلى عنادٍ من نوع آخر ، حيث ادَّعوا أنهم شعب الله المختار ، فجاء الردُّ القرآني : إذا كنتم كذلك ، فاطلبوا الموت من قلوبكم لتنتقلوا إلى ربكم ، لأنه من كان حبيباً لله ووليّاً له ، أحبَّ فعلاً لقاء الله والتقرّب إليه ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ

﴿ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة : ٩٤-٩٦] .

هذه الدعاوي إن لم تقيموا عليها بيِّناتٍ فأنتم أدعياء!!

فلم يستطيعوا إقامة دليلٍ واحدٍ على تلك الدعوى التي حاولوا أن يرتفعوا بها على العرب ، بأنهم هم أحباب الله وأبناؤه!!

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة : ١٨] .

وعندما يصل الحوار إلى مسائل العقيدة ، نرى لغة الشدة واضحة ، لأن العقيدة هي الأساس ، ولا هوادة فيها أبداً ، فإما إيمان وإما كفرٌ ، أما أن يُقال إن (عزيراً) هو ابن الله فهذا مرفوضٌ قطعاً ، قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن

يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾

[النساء : ١٧١]

ذلك لأن عزيراً والمسيح عبدان من عباد الله ، وهذا ما اعترف به المسيح عيسى عليه السلام ، حيث أقرَّ أنه بشر نبي ، وليس إلٰهاً ، إنما الإلٰه هو الله : ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم : ٣٠ـ ٣١] .

وإلا فإن أراد الله إهلاك العزير أو عيسى فمن ينصرهما من دون الله ؟!

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

[المائدة : ١٧]

بعد ذلك الصبر واتخاذ أساليب الحوار السلمي الهادئ الهادف ، كانت قضية المباهلة!!

وملخّص الحادثة :

في السنة التاسعة للهجرة أرسل النبي ﷺ وفداً إلى أهل

نجران يبلِّغهم دعوة الإسلام ، فما كان منهم إلا أن أرسلوا كبار القساوسة والأشراف وما إلى هنالك ، وكان عدد الوفد (٦٠) ستين راكباً ، ولما وصلوا إلى المسجد النبوي ، دخلوا على رسول الله ﷺ ، وبعد أن فرغ من صلاة العصر استقبلهم في المسجد ، فقاموا يصلُّون باتجاه الشرق ، فلما اعترض بعض الصحابة على ذلك ، قال الرسول : « دعوهم » ، فسأل واحد من أهل نجران ـ وكان نصرانياً ـ : أتريد منا يامحمد أن نعبدك ؟! فقال الرسول : « معاذ الله أن أعبدَ غير الله أو آمر بعبادة غيره فما بذلك بعثني الله ولا أمرني » فأنزل الله تعالىٰ في ذلك قوله :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩ـ٨٠] .

ثم ساءلهم وساءلوه ، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له : ما تقول في عيسى ابن مريم ؟ فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارىٰ يسرُّنا إن كنتَ نبياً أن نعلم ما تقول فيه ، فقال رسول الله ﷺ : « ما عندي فيه شيءٌ يومي هذا ، فأقيموا حتى أخبركم بما قال في عيسى » .

فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل هذه الآية :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٩ـ٦١] .

فأبوا أن يقرُّوا بذلك .

وتظهر مسألة الجدال والحوار في القصة من خلال ما رواه البزار والطبراني بالسند المتصل إلى عبد الله بن الحارث رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لوددتُ أن بيني وبين أهل نجران حجاباً » من شدة ما كانوا يجادلونه[1] .

وفي صحيح مسلم أن رسول الله دعا عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً ، فقال : « اللهم هؤلاء أهلي » .

ولما رأىٰ أعضاء وفد نجران ذلك خافوا من الملاعنة وطلبوا من رسول الله أن يعفيهم منها ، فقال : « قد أعفيتكم ، إن العذاب قد أظل نجران » .

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي : ١/ ١٥٥ .

وطلبوا الصلح ، فوافق رسول الله على ذلك ، وكتب لهم كتاباً يفصِّل فيه بنود المعاهدة والصلح[1] .

***

إذاً :

هناك من أهل الكتاب مسالمون أهل ذمة ، فلهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، وهناك منهم محاربون معادون ، أو مناصرون لعدو الإسلام والمسلمين .

أما القسم الأول فهم الذين لهم كل أنواع الحوار والجدال بالحسنىٰ واللطف والإقناع ، لكن الذين عاندوا ، وحادوا عن سبل الحق ، فعلىٰ المسلمين أن يقيموا عليهم الحجة عن طريق تبيان الحقائق ، وعندما يصرُّون ويستكبرون ويستهزئون بالحق وأهله ، فعندها يجب أن تُسدل الستارة على الجدال بالحسنىٰ ، لتعلن ضدهم كل أنواع الحرب ، لأن من يقدّم

---

(١) للتوسع يراجع : سيرة ابن هشام : ٢/ ٢٠٤ ، طبقات ابن سعد : ١/ ٣٥٧ ، دلائل البيهقي : ٥/ ٣٨٥ ، عيون الأثر لابن سيد الناس : ١/ ٢٢٠ ، زاد المعاد لابن القيم : ٣/ ٦٣١ ، صحيح البخاري : ٥/ ٢١٧ ، صحيح مسلم : ٤/ ١٨٧١ ، مسند أحمد : ٣/ ١٧٥ ، سنن أبي داود : ٣/ ٤٣٠ ، وسيرة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام ، للمؤلف : ٤/ ١١٧ ـ ١٤٩ .

الوردة يعامل بالمثل ، أما الذي يصوِّب المدفع ويقتل الأبرياء ، فالإحسان لا ينفع معه أبداً ، إنما لا ينفع معه إلا السيف :

ووضعُ الندىٰ في موضعِ السيفِ للعلا
مضرٌّ كوضعِ السيفِ في موضعِ الندىٰ

إن الحديد بالحديد يُفلحُ ! !

وهذا قرار الله تعالىٰ : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد : ٢٥] .

فللحديد فوائد كما للكتاب والميزان ، حيث فيه بأس شديد ومنافع للناس ، والمعاملة بالمثل واستخدام القوة هما السبيل للردِّ على الذين استثناهم الله من الحوار بقوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

لكن على الرغم من ذلك كله ، فلا بدَّ من الحوار والجدال وإقامة الحجة ، لأن الشعار الدائم هو : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

وهذا هو الفيصل بين الطريق الصحيح الواضح ، وبين الطريق الخاطئ المظلم .

فإما ﴿لا إكراه في الدين﴾ وهي تضم كل مفردات التوحيد التي تعاقب على حمل لوائها أنبياء الله من لدن آدم عليه السلام وحتى خاتمهم رسول الله ﷺ ، وهي التي عناها الله بقوله : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر : ٦٥] .

وهذا ليس أحلاماً وأماني ، إنما كما قال تعالىٰ : ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء : ١٢٣] .

وفي الجانب الآخر : طريق الطاغوت .

وهو الذي يجب على كل العقلاء في العالم أن ينبذوه ويبتعدوا عنه ، لا أن يقفوا في وجهه ويحاربوه ، والدليل على ذلك أن أنبياء الله سبحانه لم يحملوا السيف من أجل نصرة الحق ، إنما فقط عندما وقف الطواغيت في وجه الحق ، رفع الأنبياء السيف من أجل إبعادهم عن طريق تبليغ الحق للناس .

وفي السيرة الطاهرة ـ خاصة العهد المكي ـ نماذج حيَّة على ذلك ، فذلكم عمار ووالده ياسر ووالدته سميَّة ، يُعذَّبون

على الرمضاء حيث الحرُّ الشديد ، ولما مرَّ الرسول عليهم ، وشكوا إليه الحال الذي هم فيه ، لم يطالبهم بثورة على الطاغوت الأصغر أبي جهل ، ولم يقل لهم : قوموا بعملية اغتيالية ، إنما علمهم المنهج السلمي فقال : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة »[1] .

وهذا هو خط الأنبياء عليهم السلام ، وفي القرآن الكريم حوارٌ رائع بين أنبياء الله وبين الكفرة ، وفيه بيان واضح للخط السلمي الحواري الذي سار عليه الأنبياء ، قال تعالىٰ في رسم ملامح هذا الخط الرائع[2] :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا

---

(١) مستدرك الحاكم : ٣/ ٣٨٣ .

(٢) للتوسع يراجع كتاب : القدوة والأسوة في القرآن والسنة ، للمؤلف : ٣٦ـ٥٧ .

كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم : ٩-١٤] .

إنهما منطقان متضادان : منطق الكفر الذي يعلن الاستهزاء والسخرية ، ويعلن الشك في دعوة الأنبياء ، ويدعو إلى رؤية العذاب الذي يتوعَّد به الأنبياء ، ويهدد بالطرد من البلاد وما إلى ذلك .

أما منطق التوحيد فهو الذي يحاجج ويجادل بالتي هي أحسن ، ويحاور بكل ما هو مشترك ، ويرفع لواء السلم ، ويعترف أن المسألة ليست من خلق أفكاره ، إنما هي قضية يختص الله بها من عباده من يشاء ، وبالتالي ففي كل الأوضاع هناك توكل على الله وحده ، ومهما حدث فلا بد من الصبر حتى يأتي الله بالفرج .

وهذا الثبات والصبر هو أهم أساس من أسس الدعوة إلى الله تعالىٰ ، وإلا فالذي يُجيز لنفسه شرعية الاستيلاء على السلطة بالقوة ، فإنه بذلك يعطي الآخرين الشرعية نفسها ، وهذا ما لا يقرُّه عاقلٌ أبداً ! !

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

وبالتالي فحتى الجهاد في الإسلام لم يُشرع من أجل إكراه الناس على الدخول في الإسلام ، إنما شُرع للوقوف في وجه من يريد إخراج الناس من عقائدهم بالإكراه أو من يريد إخراجهم من ديارهم بغير حق ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الممتحنة : ٨ـ٩] .

وإلا فكل من يؤمن بالإكراه إنما يحمل بقايا بذور الفرق الإسلامية البائدة ، كالخوارج والمعتزلة ، لأن المنطق الإسلامي الصحيح لا يُجيز ذلك ، إنما يدعو إلى قضية مركزية

وهي : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم : ١٢] .

أو هي ـ كما وردت في أول سور القرآن نزولاً ـ : ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ [العلق : ١٩] .

أي : لاتطع الطاغوت فيما يأمرك به ، خاصةً إذا كان ذلك الأمر يخالف أمر الله سبحانه ، إنما مارس حقك في عدم طاعته ، لكن لا تخرج عليه ، لكن لا تغلق أبواب الحوار والجدال معه ، حتى لو آذاك فاصبر ، واسجد لربك واقترب منه ، وعندئذٍ سيكون ما وعد الله به المؤمنين : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور : ٥٥] .

وهذا ما صوَّره المسيح عليه السلام عندما جاؤوا إليه يريدون أن يقتلوه ، فقام أحد تلاميذه واستل السيف ، وضرب به رئيس الشرطة فقطع أذنه ، فقال عيسى عليه السلام : ردَّ سيفك إلى مكانه فمن يأخذ بالسيف ، بالسيف يَهلِك ! !(١) .

وقريب من هذا الفهم الدقيق لمعنى (اللاإكراه) عبَّر عنه

---

(١) إنجيل متى : ٢٦/ ٥٢ .

عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه حين أُوكل إليه أمر الأمة ، صعد المنبر وقال : ويلكم إن الله بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً ، كيف تفتحون البلاد والناس لم يفهموا الإسلام بعد ؟!

وبهذا فهم العلماء المنصفون في الغرب عندما قرؤوا عن الإسلام ، وقارنوه بما هو مخالفٌ له من النظريات الوضعية ، فتوصلوا إلى نتيجة مهمة ، ملخصها : أن القرآن الكريم هو أفضل كتاب حواري ومع كل الناس ، وأن الإسلام ما انتشر بالسيف أبداً ، وأن أصحاب الديانات لم تعرف أرحم من المسلمين .

لذلك صرَّح (توماس كارليل) بقوله : ويلكم إن الإسلام هو ضحية السيف .

وأكد ذلك العالم الكبير (توينبي) في عدة مقالات ومناسبات ، من ذلك : كل من أخذ بالسيف به يهلك ، وقال : كل الحضارات التي تنشأ بالسيف تهلك ولا تنمو ، وقال : إذا اعترضوا عليَّ بالإسلام أنه أخذ بالسيف ولم يهلك ، فإنني أقول : إن الإسلام لم ينطلق بالسيف وأنتم الذين تخطئون ، بل إن الإسلام جاء بشيءٍ جديدٍ على العالم

كله ، وهو أنه أجاز للمخالفين له في الدين أن يعيشوا في ظله محترمين ، ونحن الغربيين لم نصل إلى هذا ، ولذلك نجد البروتستانت والكاثوليك يتقاتلون .

إذاً :

هذا منطق الأديان كلها ، أن ينذر النبي قومه ، ثم يدعهم وتفكيرهم ، وليختاروا مصيرهم بأيديهم ، فلا عنف ولا إكراه ، إنما : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[1] [النحل : ٣٦] .

* * *

ولعلنا وفي معرض الحوار مع أهل الكتاب نلتفت إلى مسألة مهمة ، وهي أن بعض المسلمين تتشدد في العلاقة معهم ، حتى كادوا يصلون إلى درجة تشويه الحقيقة الساطعة لانفتاح الإسلام على أهل الذمة ، من ذلك ما جعل بعضهم يطلق عليهم صفة النجاسة مستدلاً بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا

(١) توسع يراجع كتاب : في ظلال السيرة النبوية ، للمؤلف : ١٢٦ـ١٤٧ .

﴿ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾

[التوبة : ٢٨]

إن مشكلة الكثيرين عندنا أنهم لا يحقّقون ولا يدققون ، فالعلماء المحققون مُجمعون علىٰ أن الشرك هو نجاسة عينية ، وبالتالي قال الإمام أبو حنيفة وأصحابه : لا يُمنع اليهود والنصارىٰ من دخول المسجد الحرام ولا غيره ، ولا يُمنع دخول المسجد الحرام إلا المشركون وأهل الأوثان .

وقال الكِيَا الطبري : ويجوز للذمي دخول سائر المساجد عند أبي حنيفة من غير حاجة[1] . لذلك سأنقل بعض المرويات التي توضح أن المسلمين لا يتشنَّجون في علاقاتهم مع أهل الكتاب ، إنما يفتح الإسلام ملف الحوار على مصراعيه ليكون لكل طائفة من الناس خصوصياتها ، بينما يجلس الجميع على طاولة (السواء) ليتناقشوا في القضايا المشتركة وخاصة قضية التوحيد .

قال أبو عبيد في (الأموال) : ومعنى قول عمر رضي الله عنه : (ولُّوهم بيعها ، وخذوا أنتم من الثمن) ، أن المسلمين كانوا يأخذون من أهل الذمة الخمر والخنازير من جزيتهم

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٤/ ٤١ .

وخراج أرضهم بقيمتها ، ثم يتولى المسلمون بيعها فأنكره عمر ، ثم رخص لهم أن يأخذوا من أثمانها إذا كان أهل الذمة هم المتولين بيعها ، لأن الخمر والخنازير مال من أموال أهل الذمة ، ولا تكون مالاً للمسلمين!!

. . وأما أبو حنيفة رحمه الله تعالىٰ فعنده : لهم ـ أي لأهل الذمة ـ دخول الحرم كله حتى الكعبة نفسها ، ولكن لا يستوطنون به ، وأما الحجاز فلهم الدخول إليه والتصرف فيه والإقامة بقدر قضاء حوائجهم!!

. . . وقال الأثرم : سمعت الإمام أحمد يُسأل عن الرجل له قرابة نصراني يعوده ؟ قال : نعم ، قيل له : نصراني! قال : أليس عاد النبي ﷺ اليهودي ، ودعاه إلى الإسلام ؟!

. . . وجاء قيس بن شماس إلى النبي ﷺ فقال : إن أمه توفيت وهي نصرانية ، وهو يحب أن يحضرها ، فقال له النبي ﷺ : « اِركب دابتك ، وسر أمامها ، فإذا ركبت وكنت أمامها فلست معها » .

. . . وحكم ذبائحهم : فالفصل فيها قول الله تعالىٰ : ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ [المائدة : ٥] .

وقال حنبل : سمعتُ أبا عبد الله يقول : تؤكل ذبيحة اليهودي والنصراني!!

حتى إذا ذكروا على الذبيحة غير اسم الله .

فقد روىٰ أيوب بن نجيح قال : سألتُ الشعبي عن ذبائح نصارىٰ العرب ، فقلتُ : منهم من يذكر الله ، ومنهم من يذكر المسيح فقال : كُلْ وأطعمني!!

. . . وأما جواز معاملتهم ـ مِنْ بيعٍ وشراء ونحو ذلك ـ : فقد ثبت أن النبي ﷺ اشترىٰ من يهودي سلعة إلى الميسرة ، وثبت عنه أنه أخذ من يهودي ثلاثين وسقاً من شعير ، ورهنه درعه!!

. . . وأما استئجارهم ، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه استأجر دليلاً يدلُّه على طريق الهجرة ، وكان مشركاً ، فأمنه ودفع إليه راحلته هو والصدِّيق!!

. . . ويجوز نكاح الكتابية بنص القرآن ، قال تعالىٰ :

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة : ٥] .

. . . وقال الإمام أحمد ـ وفي رواية مهنا ـ في رجل تزوج

نصرانية فأمرها بترك شرب الخمر ، فإن لم تقبل ليس له أن يمنعها!!

وقال الإمام أحمد ـ في رواية مهنا ـ وقد سأله : هل يمنعها أن تُدخل منزله الصليب ؟ قال : يأمرها ، فأما أن يمنعها فلا!!

. . . وليس له منعها من صيامها الذي تعتقد وجوبه ، وإن فوَّت عليه الاستمتاع في وقته ، ولا من صلاتها في بيته إلى الشرق ، وقد مكن النبي ﷺ وفد نصارى نجران من صلاتهم في مسجده إلى قبلتهم!![1] .

إذاً :

ما يشيعه بعضهم هنا وهناك ، عن العداوة والبغضاء بين المسلمين وأهل الذمة ، محض افتراء يكذّبه القرآن ، وتدحضه السنة النبوية ، ويُردُّ عليه من خلال أحداث التاريخ الإسلامي ، لكن بشرط التمييز بين أهل الكتاب المسالمين ، الذين عاشوا مع المسلمين تحت مظلة واحدة ، فكان لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، فكانوا مجتمعاً واحداً ، دافعوا عن الوطن معاً ، وشاركوا في ازدهار الحضارة

---

(١) هذه مقتطفات متنوعة من الكتاب القيِّم الجامع : أحكام أهل الذمة للعلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله .

معاً ، وبين الحربيين المقاتلين من أهل الكتاب .

والتاريخ يشهد أن نصارى بلاد الشام وقفوا مع المسلمين ضد أبناء دينهم الرومان عندما اجتاحوا أرض المسلمين ، ووقفوا ضد الحملات الهمجية التي قام بها الصليبيون ، وصدق من قال : لم يعرف التاريخ فاتحاً مثل العرب والمسلمين .

أجل!!

لقد فتح الإسلام باب الحوار الإنساني الدعوي مع أهل الكتاب ، ومن الشواهد على ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [آل عمران : ٢٠] .

لكن مهمة الإيضاح والبيان تقع على عاتق المتنوِّرين من الموحدين ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦] .

* * *

الفصل الرابع

مقابلة السيئة بالإحسان

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

في الحديث عن آداب الدعاة ، وعن الدعوة إلى الله تعالى ، يرسم البيان الإلٰهي ذلك بشكل واضح بيِّن ، فيقول الله تعالىٰ :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت : ٣٣ـ٣٦] .

وفي سبب النزول :

﴿ومن أحسن قولاً . . .﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو رسول الله ﷺ ، دعا إلى الإسلام ، وعمل صالحاً فيما بينه

وبين ربه ، وجعل الإسلام نِحْلة ، وقال أيضاً : هم أصحاب رسول الله ﷺ .

وقالت عائشة وعكرمة ومجاهد : نزلت في المؤذنين .

وقال أبو حيان : وينبغي أن يتأول قولهم على أنهم ـ أي المؤذنون ـ داخلون في الآية ، وإلا فالسورة بكاملها مكية بلا خلاف ، ولم يكن الأذان بمكة ، إنما شُرع بالمدينة المنورة ، والدعاء إلى الله يكون بالدعاء إلى الإسلام وبجهاد الكفار وكف الظلمة .

والآية الثانية : ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة . . .﴾ نزلت في أبي سفيان بن حرب ، وكان عدواً مؤذياً لرسول الله ﷺ ، فصار ولياً معروفاً .

وروي أيضاً أنها نزلت في أبي جهل ، كان يؤذي النبي ﷺ ، فأمر النبي بالعفو عنه ، وقيل له : ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة . . .﴾[1] .

ورحم الله الفخر الرازي (ت : ٦٠٤هـ) عندما وقف بشيء من التحليل عند هذه الآيات فقال : اِعلم أن في الآية مسائل :

---

(١) للتوسع يراجع : أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥١ .

ـ **المسألة الأولى** : أنا ذكرنا أن الكلام من أول هذه السورة إنما ابتدئ حيث قالوا للرسول : ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت : ٥] . ومرادهم ألا نقبل قولك ولا نلتفت إلى دليلك ، ثم ذكروا طريقة أخرى في السفاهة ، فقالوا : ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت : ٢٦] .

وإنه سبحانه ذكر الأجوبة الشافية ، والبيانات الكافية في دفع هذه الشبهات وإزالة هذه الضلالات .

ثم إنه سبحانه وتعالى بيَّن أن القوم وإن أتوا بهذه الكلمات الفاسدة ، إلا أنه يجب عليك تتابع المواظبة على التبليغ والدعوة ، فإن الدعوة إلى الدين الحق أكمل الطاعات ورأس العبادات ، وعبَّر عن هذا المعنى فقال : ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ فهذا وجه شريف حسن في نظم آيات هذه السورة ، وفيه وجه آخر ، وهو أن مراتب السعادات اثنان : التام ، وفوق التام .

أما التام : فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملاً في ذاته ، فإذا فرغ من هذه الدرجة اشتغل بعدها بتكميل الناقصين وهو فوق التام ، إذا عرفت هذا فنقول إن قوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت : ٣٠]

إشارة إلى المرتبة الأولى ، وهي اكتساب الأحوال التي تفيد كمال النفس في جوهرها ، فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية ، وهي الاشتغال بتكميل الناقصين ، وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق ، وهو المراد من قوله : ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله﴾ فهذا أيضاً وجه حسن في نظم هذه الآيات .

واعلم أن من آتاه الله قريحة قوية ونصاباً وافياً من العلوم الإلٰهية الكشفية ، عرف أنه لا ترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن .

ـ **المسألة الثانية** : من الناس من قال المراد من قوله ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله﴾ هو الرسول ﷺ ، ومنهم من قال هم المؤذنون ، ولكن الحق المقطوع به أن كل من دعا إلى الله بطريق من الطرق فهو داخل فيه . وللدعوة إلى الله مراتب :

فالمرتبة الأولى : دعوة الأنبياء عليهم السلام راجحة على دعوة غيرهم من وجوه :

أحدها : أنهم جمعوا بين الدعوة بالحجة أولاً ، ثم الدعوة

بالسبق ثانياً ، وقلما اتفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين .

وثانيها : أنهم هم المبتدئون بهذه الدعوة ، وأما العلماء فإنهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء ، والشارع في إحداث الأمر الشريف على طريق الابتداء أفضل .

وثالثها : أن نفوسهم أقوى قوة ، وأرواحهم أصفى جوهراً ، فكانت تأثيراتها في إحياء القلوب الميتة وإشراق الأرواح الكدرة أكمل ، فكانت دعوتهم أفضل .

ورابعها : أن النفوس على ثلاثة أقسام : ناقصة وكاملة لا تقوى على تكميل الناقصين وكاملة تقوى على تكميل الناقصين .

فالقسم الأول : العوام ، والقسم الثاني : هم الأولياء ، والقسم الثالث : هم الأنبياء ، ولهذا السبب قال ﷺ : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » .

وإذا عرفت هذا فنقول : إن نفوس الأنبياء حصلت لها مزيتان : الكمال في الذات ، والتكميل للغير ، فكانت قوتهم على الدعوة أقوى ، وكانت درجاتهم أفضل وأكمل ، إذا عرفت هذا فنقول : الأنبياء عليهم السلام لهم صفتان : العلم

والقدرة : أما العلماء فهم نواب الأنبياء في العلم ، وأما الملوك ، فهم نواب الأنبياء في القدرة ، والعلم يوجب الاستيلاء على الأرواح ، والقدرة توجب الاستيلاء على الأجساد ، فالعلماء خلفاء الأنبياء في عالم الأرواح ، والملوك خلفاء الأنبياء في عالم الأجساد ، وإذا عرفت هذا ظهر أن أكمل الدرجات في الدعوة إلى الله بعد الأنبياء درجة العلماء ، ثم العلماء على ثلاثة أقسام : العلماء بالله ، والعلماء بصفات الله ، والعلماء بأحكام الله ، أما العلماء بالله فهم الحكماء الذين قال الله تعالى في حقهم : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] وأما العلماء بصفات الله تعالى فهم أصحاب الأصول ، وأما العلماء بأحكام الله فهم الفقهاء ، ولكل واحدٍ من هذه المقامات ثلاث درجات لانهاية لها ، فلهذا السبب كان للدعوة إلى الله درجات لانهاية لها .

وأما الملوك فهم أيضاً يدعون إلى دين الله بالسيف ، وذلك بوجهين : إما بتحصيله عند عدمه مثل المحاربة مع الكفار ، وإما بإبقائه عند وجوده وذلك مثل قولنا : المرتد يُقتل ، وأما المؤذنون فهم يدخلون في هذا الباب دخولاً ضعيفاً ، أما دخولهم فيه فلأن ذكر كلمات الأذان دعوة إلى الصلاة ، فكان

ذلك داخلاً تحت الدعاء إلى الله ، وأما كون هذه المرتبة ضعيفة فلأن الظاهر من حال المؤذن أنه لا يحيط بمعاني تلك الكلمات ، وبتقدير أن يكون محيطاً بها إلا أنه لا يريد بذكرها تلك المعاني الشريفة ، فهذا هو الكلام ، في مراتب الدعوة إلى الله .

ـ **المسألة الثالثة** : قوله : ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله﴾ يدل على أن الدعوة إلى الله أحسن من كل ما سواها ، إذا عرفت هذا فنقول : كل ما كان أحسن الأعمال وجب أن يكون واجباً ، لأن كل ما لايكون واجباً فالواجب أحسن منه ، فثبت أن كل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب ، إذا عرفت هذا فنقول : الدعوة إلى الله أحسن الأعمال بمقتضى هذه الآية ، وكل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب ، ثم ينتج أن الدعوة إلى الله واجبة ، ثم نقول : الأذان دعوة إلى الله والدعوة إليه واجبة فينتج الأذان واجب ، واعلم أن الأكثرين من الفقهاء زعموا أن الأذان غير واجب ، وزعموا أن الأذان غير داخل في هذه الآية ، والدليل القاطع عليه أن الدعوة المرادة بهذه الآية يجب أن تكون أحسن الأقوال ، وثبت أن الأذان ليس أحسن الأقوال ، لأن الدعوة إلى دين الله سبحانه وتعالىٰ بالدلائل اليقينية أحسن من الأذان ، ينتج من الشكل

الثاني أن الداخل تحت هذه الآية ليس هو الأذان .

ـ **المسألة الخامسة** : الآية تدل على أن أحسن الأقوال قول من جمع بين خصال ثلاثة :

أولها : الدعوة إلى الله ، وثانيها : العمل الصالح ، وثالثها : أن يكون من المسلمين .

أما الدعوة إلى الله فقد شرحناها ، وهي عبارة عن الدعوة إلى الله بإقامة الدلائل اليقينية والبراهين القطعية ، وأما ﴿وعمل صالحاً﴾ فاعلم أن العمل الصالح إما أن يكون عمل القلوب وهو المعرفة ، أو عمل الجوارح ، وهو سائر الطاعات .

وأما قوله : ﴿وقال إنني من المسلمين﴾ فهو أن ينضم إلى عمل القلب وعمل الجوارح الإقرار باللسان ، فيكون هذا الرجل موصوفاً بخصالٍ أربعة :

أحدها ـ الإقرار باللسان .

وثانيها ـ الأعمال الصالحة بالجوارح .

وثالثها ـ الاعتقاد الحق بالقلب .

ورابعها ـ الاشتغال بإقامة الحجة على دين الله .

ولا شك أن الموصوف بهذه الخصال الأربعة أشرف الناس وأفضلهم ، وكمال الدرجة في هذه المراتب الأربعة ليس إلا لمحمد ﷺ .

قوله تعالى : ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ واعلم أنا بيَّنا أن الكلام من أول السورة ابتدئ من أن الله حكىٰ عنهم أنهم قالوا : ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ ﴾ [فصلت : ٥] . فأظهروا من أنفسهم الإصرار الشديد على أديانهم القديمة وعدم التأثر بدلائل محمد ﷺ ، ثم إنه تعالى أطنب في الجواب عنه ، وذكر الوجوه الكثيرة وأردفها بالوعد والوعيد ، ثم حكىٰ عنهم شبهة أخرى وهي قولهم ﴿ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ [فصلت : ٢٦] . وأجاب عنه أيضاً بالوجوه الكثيرة ، ثم إنه تعالى بعد الإطناب في الجواب عن تلك الشبهات رغب محمداً ﷺ في ألا يترك الدعوة إلى الله ، فابتدأ أولاً بأن قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾ [فصلت : ٣٠] . فلهم الثواب العظيم ، ثم ترقىٰ من تلك الدرجة إلى درجة أخرى ، وهي أن الدعوة إلى الله من أعظم الدرجات ، فصار الكلام من أول السورة إلى هذا الموضع واقعاً على أحسن وجوه الترتيب ، ثم كأن سائلاً سأل فقال : إن الدعوة إلى الله وإن

كانت طاعة عظيمة ، إلا أن الصبر على سفاهة هؤلاء الكفار شديد لا طاقة لنا به ، فعند هذا ذكر الله ما يصلح لأن يكون دافعاً لهذه الأشكال فقال : ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ والمراد بالحسنة دعوة الرسول إلى دين الحق ، والصبر على جهالة الكفار ، وترك الانتقام ، وترك الالتفات إليهم ، والمراد بالسيئة ما أظهروه من الجلافة في قولهم : ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ وما ذكروه في قولهم : ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ فكأنه قال : يامحمد فعلك حسنة ، وفعلهم سيئة ، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، بمعنى أنك إذا اتسمت بهذه الحسنة تكون مستوجباً للتعظيم في الدنيا والثواب في الآخرة ، وهم بالضد من ذلك ، فلا ينبغي أن يكون إقدامهم على تلك السيئة مانعاً لك من الاشتغال بهذه الحسنة .

ثم قال : ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ يعني : ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق الذي هو أحسن الطرق ، فإنك إذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى ، ولم تقابل سفاهتهم بالغضب ولا إضرارهم بالإيذاء والإيحاش استحيوا من تلك الأخلاق المذمومة وتركوا تلك الأفعال القبيحة .

ثم قال : ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾

يعني إذا قابلت إساءتهم بالإحسان ، وأفعالهم القبيحة بالأفعال الحسنة تركوا أفعالهم القبيحة ، وانقلبوا من العداوة إلى المحبة ومن البغضة إلى المودة ، ولما أرشد الله تعالى إلى هذا الطريق النافع في الدين والدنيا والآخرة عظمه فقال : ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ .

قال الزجاج : أي وما يلقى هذه الفعلة إلا الذين صبروا على تحمل المكاره ، وتجرع الشدائد ، وكظم الغيظ ، وترك الانتقام .

ثم قال : ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ من الفضائل النفسانية والدرجة العالية في القوة الروحانية ، فإن الاشتغال بالانتقام والدفع لا يحصل إلا بعد تأثر النفس ، وتأثر النفس من الواردات الخارجية لا يحصل إلا عند ضعف النفس ، فأما إذا كانت النفس قوية الجوهر لم تتأثر من الواردات الخارجية ، وإذا لم تتأثر منها لم تضعف ولم تتأذ ولم تشتغل بالانتقام ، فثبت أن هذه السيرة التي شرحناها لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم من قوة النفس وصفاء الجوهر وطهارة الذات ، ويحتمل أن يكون المراد ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ من ثواب الآخرة ، فعلى هذا الوجه قوله : ﴿وما يلقاها إلا الذين

صبروا﴾ مدح بفعل الصبر ، وقوله ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ وعد بأعظم الحظ من الثواب .

ولما ذكر هذا الطريق الكامل في دفع الغضب والانتقام ، وفي ترك الخصومة ذكر عقيبه طريقاً آخر عظيم النفع أيضاً في هذا الباب ، فقال : ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ وهذه الآية مع ما فيها من الفوائد الجليلة مفسرة في آخر سورة الأعراف على الاستقصاء ، قال صاحب الكشاف : النزغ والنسغ بمعنى واحد وهو شبه النخس ، والشيطان ينزغ الإنسان ، كأنه ينخسه ببعثه على ما لا ينبغي ، وجعل النزغ نازغاً ، كما قيل : جد جده أو أريد ﴿وإما ينزغنك﴾ نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر ، وبالجملة فالمقصود من الآية وإن صرفك الشيطان عما شرعت من الدفع بالتي هي أحسن ، فاستعذ بالله من شره ، وامضِ على شأنك ولا تطعه ، والله أعلم[1] .

---

(١) التفسير الكبير ـ مفاتيح الغيب ـ : ١٤/ ١٢٥ ـ ١٢٩ ، وللتوسع يراجع :

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٥/ ٣٤١ ، البحر المحيط لأبي حيان : ٧/ ٤٨١ ، الكشاف للزمخشري : ٤/ ١٤٧ ، تفسير أبي السعود : ٥/ ٢١ ، في ظلال القرآن لسيد قطب : ٤/ ١٤٢ .

إذاً :

هذا هو الترياق النافع في مخالطة الناس ، وهي فضيلة إسلامية جليلة ، ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ .

وذلك عن طريق الصبر على أذى المعارضين ، والصفح والعفو عن كل ما يصدر منهم ، فإذا أصرُّوا على إيذائك ، فكن مصرَّاً على الإحسان إليهم .

ورحم الله مَنْ قال : ما عاقبتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه .

فإذا أحسنتَ إلى من أساء إليك ، كان ذلك منفذاً إلى محبتك والحنو عليك ، وبالتالي تُحوِّله حسناتك إلى صديق قريب .

وقريب من هذا المعنىٰ ما فسره ابن عباس رضي الله عنهما لقوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٩٩ـ ٢٠٠] . فقال : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا

فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم .

وهذه الرتبة لا يبلغها إلا من اتصفوا بصفات الرحمن كما جاء في القرآن : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] . وفي هذا امتياز خاص وحسنات كثيرة : ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٣] .

لذلك أكد رسول الله ﷺ في كثيرٍ من المناسبات على الدفع بالحسنىٰ ، من ذلك قوله : « اتق الله حيثما كنتَ ، وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها ، وخالق الناسَ بخلقٍ حسن » وقوله : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

وأكثر شعرائنا يؤكدون على هذه المزية الرائعة ، من ذلك قول أحدهم :

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلفٌ جِدًّا
أراهم إلى نصري بطاء ، وإنْ همُ ... دعوني إلى نصر أتيتهمْ شَدًّا
وإنْ يأكلوا لحمي وفرْتُ لحومَهُمْ ... وإنْ يهدِمُوا مجدي بنيتُ لهمْ مجدا
وإنْ زجروا طيراً بنحسٍ تمرُّ بي ... زجرتُ لهمْ طيراً تمرُّ بهمْ سعدا
وإنْ ضيَّعوا غيبي حفظتُ غيوبهم ... وإنْ هم هَوَوْا غيي هويتُ لهمْ رشدا

ولا أحمل الحقدَ الدفينَ عليهمُ فليس كريمُ القومِ مَنْ يحملُ الحقدا
لهم جلُّ مالي إن تتابعَ لي•غنىً وإنْ قلَّ مالي لم أكلفهمْ رِفْدَا

❊❊❊

أجل :

إنها صورة رائعة ترسم فضيلة من الفضائل ، حيث يقدر المرء على الانتقام ، ولكنه يعفو ويصفح ، ويدفع السيئة بالحسنة ، ليكون المؤمن الحقيقي ، الذي يسير على منهج القرآن الكريم وسيرة النبي الأعظم ﷺ .

وما أكثر التعليمات القرآنية والنبوية في هذا المجال الرائع ، من ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] .

ذلك لأن الإنسان يحمل الخير والشر ، وبالتالي لا يمكن أن تكون أعماله كلها حسنة ، بل لابدَّ أن يتخلل ذلك بعض السيئات ، وإلا كان معصوماً وهذا يخالف ما جاءت به الشريعة الإسلامية ، من حيث إنه لا معصوم بعد المعصوم الأكبر رسول الله ﷺ ، فالعلاقة بين الأصدقاء أو الأقارب أو الجيران مثلاً ، يجب ألا تقف عند الرسميات ونحو ذلك ، بل يجب أن تندمج العلاقات في كثيرٍ من القضايا ، وبالتالي إذا أخطأ واحدٌ

منهم ، فعلى الآخرين ألا يحاكموه محاكمةً صارمةً وكأنه معصوم!! بل لابدَّ من تطبيق أمر رسول الله ﷺ : « اِلْتمسْ لأخيك عذراً ـ وفي رواية أخرى ـ سبعين عذراً » .

ثم إذا أخطأ معك في أمرٍ ما ، فعليك أن تلتفت إلى أمرٍ آخر ، فكم من الخدمات قدمها لك ؟ وكم من القضايا الحسنة والمواقف الرائعة وقفها معك ؟ ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

وإلا إذا كنت ستقف عند كل غلطة ، فهذا يعني أنك لن تجد واحداً يصادقك أبداً .

إذا كنتَ في كلِّ الأمورِ معاتِباً صديقَكَ لم تلقَ الذي لا تعاتِبُهْ
ومَنْ ذا الذي ترضىٰ سجاياهُ كُلُّها كفى المرءَ نبلاً أن تُعَدَّ مَعَايِبُهْ

أما بين الزوج وزوجته فيجب أن تسود فكرة الصفح والتسامح ، لأنها إذا أخطأت ، فهي بشر تخطئ وتصيب ، فعليك أن تلتفت إلى الجوانب الخيرية التي قدتها لك ، فكم سهرت الليالي ؟ وكم عانت من مشاكل الحمل والولادة وتربية الأولاد ونحو ذلك ، فهل تبادرها بالإساءة والشتم وما إلى هنالك ؟ !

المنهج القرآني التعليمي هو قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة : ٢٣٧] .

وقوله تعالى : ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن : ١٤] .

وقول رسول الله ﷺ فيما رواه البيهقي في شعب الإيمان : « قال موسى بن عمران : يارب من أعزُّ عبادك ؟ قال : مَنْ إذا قدرَ غفَرَ » .

وقوله ﷺ وهو يرسم مشهداً من مشاهد يوم القيامة : « ينادي منادٍ يوم القيامة : مَنْ له أجرٌ على الله عز وجل فليقم ، فيقوم العافون على الناس » .

وقوله ﷺ لأبي هريرة : « يا أبا هريرةَ عليك بحسن الخُلُق » فقال أبو هريرة : وما حُسْنُ الخُلُق يارسول الله ؟ قال : « تصلُ مَنْ قطعك ، وتعفو عمَّنْ ظلمكَ ، وتُعطي مَنْ حرمَكَ » .

وهذا ليس كلاماً استهلاكياً يُطلق في الفراغ والهواء الطلق ، إنما عندما سمعه الرعيل الأول طبقوه على أنفسهم وأهليهم ، لذلك سطَّر التاريخ صفحات من نور ووقف حائراً أمام تراجم حياتهم . وعلى سبيل المثال لا الحصر :

الإمام زين العابدين : علي بن الحسين رضي الله عنهما تحدثنا ترجمة حياته أنه كان يجمع عبيده ومن حوله في رمضان ، ثم يقول لهم : لقد سامحتكم عن كل ما أخطأتم بحقي ، ثم يبكي ويبكون ، ثم يقول لهم : إني داعٍ فقولوا : آمين ، ويرفع يديه إلى السماء قائلاً : ربنا إنك أمرتنا أن نعفو عمَّن ظلمنا ، وقد عفونا كما أمرتنا ، فاعفُ عنا فإنك أولى بذلك منَّا ومن المأمورين .

وحين يأتي العيد ، يوزّع عليهم الجوائز ثم يعتق رقابهم قائلاً :

إن الله تعالى يعتق في كل ليلة من رمضان سبعين ألف عتيقٍ من النار ، فإذا كان آخر ليلةٍ منه أعتق الله فيها مثلما أعتق في جميع رمضان ، وإني لأحبُّ أن يراني الله وقد أعتقتُ رقاباً في ملكي في دار الدنيا ، رجاء أن يُعتق رقبتي من النار يوم القيامة!!

وذات مرة كان له جارية تسكب له ماء الوضوء من إبريق تحمله ، فسقط الإبريق من يدها فشج رأس الإمام وسال دمه ، فرفع رأسه ينظر إليها ، فقالت وهي خائفة : ياسيدي.. يقول الله تعالى في كتابه الحكيم : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

فقال زين العابدين بكل هدوء : ياهذه لقد كظمت غيظي .

قالت : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

فقال : عفوتُ عنك .

فقالتْ : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

فقال : أنتِ حُرَّةٌ لوجه الله تعالى ! ![1] .

. . . وذلك الخليفة الأول (أبو بكر الصديق) رضي الله عنه ، كان له غلام يدعىٰ (مسطح) ، وكان مسطح يتيماً فقيراً ، فكان أبو بكرٍ ينفق عليه وعلى أقربائه ، ولما كانت حادثة الإفك خاض مسطح في اتهام عائشة رضي الله عنها مع الخائضين ، فما كان من أبي بكرٍ إلا أن طرده بعد أن قطع عنه الرفد والعطاء .

فقال مسطح لأبي بكر : أنشدك الله والإسلام والقرابة والرحم ألا تحوجنا إلى أحد .

لكن أبا بكرٍ أصرَّ على ذلك ولم يقبل عذره ، وخرج

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع كتاب : ومضات من حياة السَّجَّاد زين العابدين ، للمؤلف : ١٣٧ ـ ١٥٩ .

مسطح مع أهله من بيت أبي بكرٍ وهم حائرون لا يعرفون أين المآل .

ويشاء الله سبحانه أن ينزل في هذه القصة آيات تتلىٰ إلىٰ يوم يبعثون ، فهبط الأمين جبريل على قلب النبي ﷺ بقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢] .

فأسرع أبو بكرٍ إلى غلامه مسطح ، وأعاده مع أهله ، ثم زاد من عطائه لهم ، وقال : لقد فعلتُ ذلك إذ سخط الله عليكم ، أما وقد عفا عنكم ، فمرحباً بكم ، وما أنزل الله على العين والرأس .

ورحم الله القائل ناصحاً وموجِّهاً :

إذا اعتذرَ المسيءُ إليكَ يوماً ... من التقصيرِ عُذرَ فتىً مصرِّ
فصنْهُ عن عقابِكَ واعفُ عنهُ ... فإنَّ الصفحَ شيمةُ كُلِّ حُرِّ

ورحم الله الآخر ، الذي عاهد نفسه على العفو عن الناس ، والدفع بالتي هي أحسن :

سألزم نفسي الصفحَ عن كل مذنبٍ ... وإنْ عظمتْ منهُ عليَّ الجرائمُ
فما الناسُ إلا واحدٌ من ثلاثةٍ ... شريفٌ ومشروفٌ ومثلي مقاومُ

فأما الذي فوقي فأعرف فضلَهُ وأتبعُ فيه الحقَّ ، والحقُّ لازمُ
وأما الذي دوني فإن قال منكراً صفحت لهُ عنه وإنْ لامَ لائمُ
وأما الذي مثلي فإنْ زلَّ أو هفا تفضلتُ إن الفضلَ بالحلم حاكمُ

ونختم بالعهد الذي أخذه رسول الله ﷺ على أعرابي جاء يسأله ، فقال : « لا تسبنَّ أحداً ، ولا تحقرنَّ شيئاً من المعروف ، وأن تكلمَ أخاكَ وأنت مبسطٌ إليه وجهك ، إن ذلك من المعروف ، وإنِ امرؤٌ شتمك وعيَّركَ بما يعلم فيكَ فلا تعيِّرْهُ بما تعلمُ فيه ، فإنما وبالُ ذلك عليه » .

نسأل الله أن يخلِّقنا بهذه الأخلاق الفاضلة ، إنه على ما يشاء قدير .

* * *

الخاتمة

أحسن الله ختامنا أجمعين

. . . قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى : لقد جاء المصطفى ﷺ ليعالج محو الجاهلية التي كانت تقوم على فرعين من الجهالة :

١ـ جهالة ضد العلم : فحاربها وقطعها بالمعرفة والحضِّ على العلم .

٢ـ جهالة ضد الحلم ، فحاربها بكبح هوىٰ النفس ومنع الفساد ، وقد كان العرب الأولون يفخرون بأنهم يلقون الجهل بجهل أشد :

ألا لا يجهلـنَّ أحـدٌ علينـا فنجهل فوقَ جهلِ الجاهلينا!!

فجاء رسول الله ﷺ ليقيم أركان المجتمع على الفضل ، فإن تعذَّر فالعدل ، وذلك لن يتحقق إلا إذا هيمن العقل الراشد على غريزة الغضب ، وكثير من النصائح التي أسداها الرسول ﷺ للعرب كانت تتجه إلى هذا الهدف ، حتى اعتبرت

مظاهر الطيش والتعدي انفلاتاً من الإسلام ، وانطلاقاً من القيود التي ربط بها الجماعة فلا تميد ولا تضطرب ، كما روى الإمام البخاري بالسند المتصل إلى رسول الله ﷺ أنه قال : « سبابُ المسلم فسوقٌ وقتالهُ كفرٌ »[1] .

لذلك كيف يتحول المجتمع الجاهلي الذي سادت فيه مظاهر الفساد : من انتشار الزنىٰ ، وتعاطي الخمر ، ووأد البنات ، وعادة الثأر ، وما إلى هنالك .

كيف يتحوَّل ذلك المجتمع إلى مجتمع أخلاقي مثالي ؟!

لم يكن ذلك ممكناً إلا عن طريق خطوط عريضة وقوانين رائعة ، مثل هذا الخط العريض ، الذي أكده القرآن أكثر من مرة ، وهو : بالتي هي أحسن .

سواء كان ذلك يتعلق بالجدال في كل مجالات الدعوة إلى الله تعالى ، ومع كل الناس .

أو كان ذلك يتعلق بالقول الأحسن وبشكل عام .

أو أن ذلك يتعلق بالجدال مع أهل الكتاب ، وحتى في أدقِّ التفاصيل وأخطرها .

---

(١) خلق المسلم : ١٠٩ـ١١٠ .

أو كان ذلك يتعلق بدفع السيئة .

كل هذا ليكون للفرد ، ومن ثم المجتمع كله ، ميزاناً يسيرون عليه ، فلا يبغي القوي على الفقير ، ولا يعتدي القوي على الضعيف ، ولا يتفاخر الأبيض على الأسود ، إنما : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[1] [الحجرات : ١٣] .

فهل إذا حمل المجتمع الإنساني أمثال هذا القانون القرآني ، هل نعود فنرىٰ القصف الهمجي للآمنين ؟ أو هل تبقىٰ مسألة استغلال الدول المتحكمة في مصائر الدول الضعيفة ؟ وهل تبقىٰ قضية الاعتداءات والحروب والدمار وما إلى هنالك ؟!

أبداً ، لكن لابدَّ من ضبط النفوس بضوابط القرآن والسنة ، ليكون الجميع إخواناً ، في الدين أو الوطن أو الإنسانية .

روى الإمام أحمد في المسند بالسند المتصل إلى رسول الله ﷺ أنه قال : « من كظمَ غيظاً وهو قادرٌ على أن ينتقمَ ، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يُخيِّرَهُ مِنَ الحورِ العينِ أيتهُنَّ شاءَ » .

---

(١) للتوسّع يراجع كتاب : الفقراء والأغنياء في ميزان الشريعة الإسلامية ، للمؤلف : ١٧٧ .

هـذا فقـط إذا كظـم غيظـه ، فكيـف إذا قـابـل الإسـاءةَ بالإحسان ؟!

نسأل الله تعالى أن يجعل كل واحدٍ منا كأبي ضمضم :

روى البيهقي والبزار وأبو داود أن النبي ﷺ قال : « أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم ؟ » قالوا : ومن أبو ضمضم يارسول الله ؟ قال : « رجلٌ كان إذا أصبح يقول : اللهم إني قد وهبتُ نفسي وعرضي ، فلا يشتمُ من شتمه ، ولا يظلمُ من ظلمه ، ولا يضربُ من ضربه » .

. . . . وبعد : هذا ما فتحه الله علينا في الوقوف قليلاً عند هذا القانون القرآني ﴿بالتي هي أحسن﴾ فإن قاربنا الهدف ، فذلك من فضل الله ومنّتِهِ ، وإلا فمن نفسي الإمارة بالسوء ، لكن حسبي أني حاولتُ ، وشفيعي في ذلك قوله تعالى :

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وصلى الله على نبيّنا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين ، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين .

المصادر والمراجع

١ـ أحكام أهل الذمة ، الإمام ابن قيم الجوزية ، تحقيق الدكتور صبحي صالح ، ط٢ سنة ١٩٨١م ، دار العلم للملايين ، بيروت .

٢ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، الإمام الماوردي ، ط١ سنة ١٩٩٦م ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

٣ـ أحكام القرآن ، ابن العربي ، تحقيق عبد القادر عطا ، ط١ سنة ١٩٩٠م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٤ـ أسباب نزول القرآن ، الإمام الواحدي ، تحقيق أحمد صقر ، ط١ سنة ١٩٦٩م ، دار الكتاب الجديد ، القاهرة .

٥ـ الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ، ط٢ سنة ١٩٩٢م ، دار الجيل ، بيروت .

٦ـ الاعتصام ، الإمام الشاطبي ، ط١ سنة ١٩١٣م ، المكتبة التجارية ، القاهرة .

٧ـ اشتراكية الإسلام ، الدكتور مصطفى السباعي ، ط٣ سنة ١٩٦٠م ، مؤسسة المطبوعات العربية ، دمشق .

٨ـ الأنوار في شمائل النبي المختار ، للإمام البغوي ، تحقيق إبراهيم اليعقوبي ، ط١ سنة ١٩٩٥م ، دار المكتبي ، دمشق .

٩ـ فضائل آل البيت في ميزان الشريعة الإسلامية ، الدكتور محمد عمر الحاجي ، ط١ سنة ١٩٩٩م ، دار المكتبي ، دمشق .

١٠ـ البحر المحيط في التفسير ، لأبي حيان الأندلسي ، ط٢ سنة ١٩٩٢م ، دار الفكر ، دمشق .

١١ـ البداية والنهاية ، الحافظ ابن كثير الدمشقي ، ط١ سنة ١٩٩٤م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٢ـ فقه الدعوة إلى الله ، الدكتور علي عبد الحليم محمود ، ط٣ سنة ١٩٩٠م ، دار الوفاء ، القاهرة .

١٣ـ جامع البيان عن تأويل القرآن ، للإمام الطبري ، تحقيق محمود شاكر ، ط١ سنة ١٩٥٤م ، دار المعارف ، القاهرة .

١٤ـ التفسير الكبير ، للإمام الرازي ، ط١ سنة ١٩٩٥م ، دار الفكر ، بيروت .

١٥ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول ، للإمام ابن الأثير ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ط١ سنة ١٩٨٣م ، دار الفكر ، بيروت .

١٦ـ الجامع لأحكام القرآن ، للإمام القرطبي ، ط١ سنة ١٩٩٤م ، دار الحديث ، القاهرة .

١٧ـ الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ، الشيخ محمد الغزالي ، ط٥ سنة ١٩٨٠م ، ذات السلاسل ، الكويت .

١٨ـ رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، أبو الحسن علي الحسني الندوي ، ط٤ سنة ١٩٧٤م ، دار ابن كثير دمشق .

١٩ـ الدعوة الإسلامية في مواجهة التحديات ، أنور الجندي ، ط١ سنة ١٩٩١م ، دار الاعتصام ، القاهرة .

٢٠ـ زاد المعاد في هدي خير العباد ، ابن قيّم الجوزية ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط١ سنة ١٩٧٩م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

٢١ـ المغني ، ابن قدامة المقدسي ، تحقيق عبد الله التركي ، ط١ سنة ١٩٨٦م ، دار حجر للطباعة والنشر .

المحتوى

من وحي التنزيل ٥
من دوحة الشِّعر ٦
تمهيد ٧

الفصل الأول
الجدال بالتي هي أحسن

التعريف اللغوي والاصطلاحي ١٤
الآيات القرآنية الواردة في ذلك ١٨
أساليب الدعوة إلى الله تعالىٰ ١٩
الحوار القرآني ٢٠
منهج الأنبياء في ذلك ٢٤

الفصل الثاني
القول بالتي هي أحسن

المنهج القرآني في الحديث عن ذلك ٣٩
المنهج النبوي في الحديث عن ذلك ٤٦

ضوابط القول ٥٢
نماذج من قصص الأنبياء مع الكافرين ٥٧

الفصل الثالث
الجدال مع أهل الكتاب

الآيات القرآنية في ذلك ٦٣
قضية المباهلة (عام ٩ هـ) ٧٠
ماذا تعني ﴿لا إكراه في الدين﴾ ٧٥
حقيقة التعامل مع أهل الذمة ٨١

الفصل الرابع
مقابلة السيئة بالإحسان

وقفات مع الآيات القرآنية وتفسيراتها ٨٧
الترياق النافع في مخالطة الناس ٨٩
الخاتمة ١٠٩
المصادر والمراجع ١١٥
المحتوى ١١٩